وادي جهنم

رواية

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـم الكتاب: وادي جهنم
اســـم المؤلف: شريف نصر
التصنيـــــف: رواية
الحجـــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 156
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 15453 / 2025
الترقيم الدولي: 8 – 220 – 971 – 977 - 978

تدقيـــق لغوي: فريق ديوان العرب
تصميم غـــلاف: هبة إبراهيم
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

وادي جهنم

رواية

شريف نصر

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى شهداء لقمة العيش في هذا الوطن...

سواء كانوا على الطرق أوفي الصحري أو البحار...

سواء كانوا على الحدود أو خارجها...

أنتم تيجان عزة وفخر لهذا الوطن.

دمتم لنا منارًا ونبراسًا ودليلًا نهتدي ونقتدي به.

شريف نصر

****

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الإسلام ومعلم البشرية محمد بن عبدالله عليه صلوات الله وتسليماته خير البشر وإمام الدعاة وصاحب الدعوة الخالدة إلى الإسلام والسلام لكل البشرية وعلى آله وأصحابه الأخيار منارات الهدى في أوقات الجهل والظلمات.

أما بعد؛؛؛

لقد كانت صحراء مصر دائمًا زاخرة بالثروات والمعادن النفيسة، فَتحْتَ ثراها يقبع البترول والغاز الطبيعي والمنجنيز والفوسفات والذهب والنحاس وغيرها، فصحراء مصر الشرقية والغربية مليئة بكل هذه الثروات وبينما نكتب أحداث هذه الرواية هناك رجال ينقبون ويحفرون ويبحثون عن هذه الثروات والمعادن التي تساهم بدرجة كبيرة للغاية في اقتصاد مصر.

كانت الصحراء دائمًا موطنًا مليئًا بالثروات وكذلك الأسرار والألغاز والحكايات الآسرة والمخلوقات العجيبة أحيانًا من نباتات وحيوانات وزواحف؛ ورجال البترول والثروة المعدنية ممن يقتحمون هذا العالم يعرفون ما أتحدث عنه فقد اختبروه وعاشوه طيلة سنوات وأعوام.

ومن الأماكن التي لا يمكن نسيانها في صحراء مصر الغربية هذا الوادي الساحر، وادي جهنم، الذي لا يمكن لمن عاش فيه أو مر بجانبه أن ينساه وهو أرض منبسطة بها بعض المنخفضات وكذلك المرتفعات المحيطة بكل جوانبه، ولا عجب في ذلك فالبيئة الصحراوية لا تخضع لمنطق جغرافي أو مناخي واضح، فيجاور المرتفع منخفضًا ويتبع المطر شمسًا حامية ورياحًا عاتية دون إبداء أسباب.

كانت منطقة وادي جهنم عامرة برجال هذا الموقع البترولي الذي أصبح يحتوي على معسكر لإقامة عمال الشركة الذي يستخرجون الزيت الخام والغاز الطبيعي من تلك البقعة ويخزنونها في صهاريج أو خزانات كبيرة بعد معالجتها في محطة الإنتاج وقبل شحنها إلى موانيء الشحن، وقد احتوت المنطقة على كميات واعدة من البترول فشرعت الشركة في استئجار أجهزة الحفر لحفر الآبار وكذلك بناء صهاريج إنتاج جديدة لاستيعاب كميات الزيت الخام المتوقعة، كان ذلك فتحًا للشركة التي طلبت أعمالا أكثر وقبلت عمالا أكثر للعمل بها سواء بصورة دائمة أو مؤقتة خلال عمليات الحفر أو خدمات الإنتاج والتخزين والشحن.

****

تنويه:

هذا العمل الأدبي من وحي خيال الكاتب ولا يمت للواقع بأي صلة وأي تشابه بين الأحداث أو الشخصيات أو الأفكار إنما من قبيل الصدفة.

الفصل الأول

على جهاز الحفر

كان المهندس الشاب مصطفى زيدان مندهشًا مذهولًا من هذه الأجواء الحارة في هذا الوقت من الشتاء القارس والقارص معًا، كان لا يعرف أن شمس الشتاء في الصحاري كاذبة، فعندما تغرب الشمس تصبح البرودة قارصة كجليد الأقطاب، كان يتحسس أجواء وادي جهنم بينما ينزل من هذه السيارة التي تقله وزملاءه إلى جهاز الحفر أو البريمة كما نسميها في مصر، كانت هذه هي مناوبته الأولى على البريمة حيث تم قبوله كعامل حفر على هذه البريمة قبل عدة أيام، لم يجد فرصته للعمل كمهندس بترول فقرر على مضض المُضي قُدمًا في هذا الدرب الذي سيبدأه من الصفر، آملا ألا يتأخر في الترقي به، فهو يعلم أن العمل كعامل حفر شاقٌ للغاية، فهو يعرف طبيعة العمل به من قبل إلا أنه لم يشأ أن يبقى طويلا دون عمل خاصة وأنه يعلم أن بلدنا أصبحت شحيحة لدرجة الندرة في فرص العمل لمهندسي البترول.

لم يُضِع مصطفى الوقت حيث تعرف على زملائه في عمله الجديد طوال هذه الرحلة الشاقة والتي انتهت بطريق رملي غير ممهد قاده بعد ثلاث ساعات إلى وادي جهنم الذي عرف منذ الوهلة الأولى لمَ سُمي بهذا الاسم؛ بمجرد

نزوله طلب منه الريس محمود والذي يعمل حفارًا التوجه إلى ميس الطعام لتناول غدائه ثم ارتداء ملابسه الخاصة بالعمل من أفارول وخوذة رأس وحذاء واقٍ ثم الانضمام لزملاء مناوبته للعمل معهم سريعًا.

بعد نصف ساعة كان مصطفى زيدان جاهزًا لبدء عمله على البريمة، فذهب إلى الريس محمود الذي أخذه إلى الحاج بهاء رئيس العمال ومسئول البريمة الأول في وادي جهنم الذي أراد التعرف على مصطفى وتوجيهه قبل بدء العمل فقال له:

- حسنًا يا مصطفى، لقد علمتُ أنك تخرجت في كلية هندسة البترول لكن عليك أن تنسى ذلك هنا ولو مؤقتًا؛ ستعمل معنا كعامل حفر، ستنفذ كل ما يطلب منك دون الكثير من الأسئلة، دع الأيام فقط تخبرك بكل ما تود معرفته عن البريمة والموقع والناس هنا وكل شيء آخر.

- لا تقلق يا سيدي، لقد عرفت الكثير عن زملائي هنا خلال رحلتنا الطويلة و...

- لم تعرف شيئًا.

اندهش مصطفى من كلام الحاج بهاء الذي كان لا يبدو وسيمًا أو وقورًا اشتعل رأسه شيبًا كما توقع مصطفى بل كان رجلا قويًا يبدو في منتصف الأربعينات من عمره، كان رشيقًا رياضيًا طويل القامة ذا لحية خفيفة امتزج سوادها ببعض البياض الهاديء الذي لا تلحظه إلا عن قرب، قطع اندهاشه وتأمله صوت الحاج بهاء مرة أخرى يقول:

- إننا ما زلنا في مرحلة تركيب وتجهيز البريمة للعمل، ستكون مع الريس محمود وكذلك وليد ومؤمن وبقية زملائك وستنفذ ما يطلبونه منك، حاول أن تكون قويًا وسريعًا لكن دون أن تؤذي نفسك أو أحد زملائك، أفهمت؟

- فهمت.

- والآن خذه يا محمود واطلب منه ما تشاء وحاول انجاز شيئًا ما اليوم قبل غروب الشمس وقبل هطول الأمطار فلا تأمنوا شمس الشتاء فهي كاذبة ككلام النساء ليلًا.

- حسنًا يا حاج بهاء.

ذهب مصطفى خلف الريس محمود واتجها إلى بقية طاقم الحفر الذين بدأوا العمل بالفعل وقال الريس محمود لمصطفى دون أن ينظر خلفه:

- الحاج بهاء رجل جاد، لا يمزح كثيرًا مع طاقم الحفر لكنه طيب القلب ويحترم الجميع، فلا تتسرع في الحكم عليه، هو فقط يحب الإنجاز في العمل قدر الإمكان مع الالتزام بتعليمات الأمان على البريمة كي لا يصاب أحد، وكونك مهندسًا حديثًا يعني أن لديك فكرة عما أقول.

- نعم يا حاج محمود.

- اسمي الريس محمود وليس الحاج محمود وعلى كل حال ليس كل حاج حاجًا، إنما هي ألقاب أو مسميات لا يعرف أحدٌ من اخترعها وأدخلها مجال عملنا.

ابتسم مصطفى وقد حاول منع ابتسامته كما منعها عندما قال الحاج بهاء أن شمس الشتاء كاذبة كالنساء ليلا لكنه لم يستطع هذه المرة، التفت له محمود فوجده يبتسم فضحك له وقال:

- حاول ألا تتخلى عن ضحكتك أو ابتسامتك، فهي ستنفعك في هذا الوادي الكئيب.

- لا تبدو كبيرًا في السن يا ريس محمود؟!

- عمري **37** عامًا يا....

- اسمي مصطفى، مصطفى زيدان.

- من الآن سيكون اسمك زيزو، للتسهيل على الجميع حين ينادونك.

- لا مشكلة لدي في ذلك يا ريس.

وصل محمود إلى بقية الطاقم وعرفهم على زميلهم الجديد، فرحّبوا به سريعًا قبل أن يدفعه محمود إلى أحدهم كي يُشغِله ويراقب عمله.

مرّ اليوم الأول والذي كان طويلا بعض الشيء بسبب السفر الطويل ومرهقًا كذلك بسبب أعمال الربط والطرق على الحديد باستخدام مطارق كبيرة وتوصيل كرفانات الإقامة، وتوصيلات الكهرباء والمياه والصرف الصحي وغيرها؛ تناول وجبة العشاء مع زملائه وما أن انتهى منها حتى اتجه إلى مكان نومه وغط في نوم عميق حتى ساعات الصباح الأولى من اليوم التالي، عاد ليكرر نفس يومه السابق بمجهود أكبر في بداية المناوبة وطاقة أقل بعض الشيء مع مرور الساعات، فلم يكن معتادًا على هذا العمل الشاق

الذي اضطر إليه هربًا من واقعه، ماضيه وفراغه الذي يعيد إليه مرارة الذكريات وآلام الفقد والافتقاد والحنين إلى الحب والحياة؛ لم يكن يحب أن يفكر كثيرًا فيما مضى، كان يركز في عمله على البريمة ويحاول قتل هذا الفراغ في قلبه وذلك الثقب الأسود في عقله الذي يلتهم كل شيء حوله بلا رحمة، كل شيء إلا ذكرياته معها وأحلامه بها ولها، لكن أين هي الآن؟ قد تكون في أي مكان إلا معه، لقد عُقِد قرانها قبل أيام ولا بد أن زواجها سيتم قريبًا في أي وقت الآن، كان قلبه يحترق من هذه الخواطر والمشاعر التي تجتاحه وتهز ضلوعه بعنف، نصحه والده ألا ينتظر الفرصة بل أن ينتزعها بسرعة ليقتل الفراغ والاشتياق، ليقتل هذا الحب للأبد، وهذا ما جعله لا يتردد في قبول هذا العمل الذي لم يتمنَ أن يكون ملجأه الوحيد وملاذه الأخير، عاد ليتذكر كيف نام دون وعي أمس، دون تفكير فيها، دون ذكر لسلمى، سلمى التي كانت قبلا ملاذا لقلبه وعشقًا يروي ظمأه للحب والحياة، نام بسبب التعب والإرهاق، عليه أن يتخطى الأمر للأبد لأن سلمى لن تعود له مهما حدث فقد أصبحت حب وحياة شخص آخر لا يعرفه ولم يره ولو لمرة واحدة، شخص كان مستعدًا وجاهزًا ومقبولا للزواج دون تأخير.

لم ينتبه مصطفى لما كان يدور من حوله إلا عندما دفعه محمود في صدره بغضب قائلًا:

- ماذا بك أيها الأبله؟ مؤمن يحدثك منذ دقيقة كاملة لتدفع إليه ذلك المفتاح وأنت لا تسمع شيئًا.

أشار محمود إلى مفتاح إنجليزي مقاس **36** بالقرب من مصطفى.

- أنا... متأسف لم أنتبه لقد كنت أفكر بال....

- لا تعتذر كثيرًا بل انتبه كثيرًا يا باشمهندس، فعملنا خطير للغاية وفي لحظة من عدم الانتباه قد تفقد حياتك أو تتسبب في فقدان أحدهم لحياته.

- أنا آسف.

- حسنًا أعطِ مؤمنًا المفتاح ولا تسرح كثيرًا.

- لن يحدث هذا الأمر مرة أخرى.

- سنرى.

كان مصطفى شابًا في السادسة والعشرين من عمره، لم يكن بالطويل البائن أو القصير كذلك، لم يكن كذلك أبيض البشرة بل خمري البشرة ذا شعر أسود داكن وعينين سوداوين تلمح فيهما قسوة الأيام ومرارة المعاناة على الفور، تشعر أن خلفه أمر يهمه ويحزنه، لم يكن يتحدث كثيرًا عن نفسه مع زملائه بل يسمع منهم ويستفيد من معرفتهم بالعمل أكثر منه رغم دراسته واجتهاده طوال خمس سنوات، تعرف أكثر إلى وليد ومؤمن

والريس محمود والحاج بهاء وغيرهم، جميعهم يعرفون هذا الشعور الأول تجاه العمل على البريمة في صحراء قاحلة، فالمكان قفر وقاس وكئيب، تكاد الأيام تتشابه لدرجة التماثل، لم يكن يُسيرها إلا المزاح والحكايات والضحكات التي يطلقها الجميع بين الحين والآخر حتى أثناء العمل الشاق ولولا ذلك ما تغلبوا على هذا الشقاء.

في أثناء العمل بين الحين والآخر لاحظ أن بعض زملائه يتعلل بحاجته إلى التدخين مع تناول كوب من الشاي الساخن، ولم يكن يدخن كمعظم طاقم البريمة وكذلك لم يكن يتناول الشاي بكثرة، فآثر تناوله بدلا من التدخين ليجد لنفسه سببًا يتعلل به عندما يكون بحاجة لالتقاط أنفاسه بعد ساعات من المعاناة والعمل مع زملائه، وفي تلك الأوقات من الراحة لتناول بعض الماء والشاي تعرف أكثر إلى وليد ومؤمن ونور وغيرهم وكانت أعمارهم جميعًا متقاربة، فبعضهم دون الثلاثين بقليل، والآخرون فوق الثلاثين بقليل، فكان يجمعهم الفتوة والشباب وطريقة التفكير وأسلوب الحياة كذلك.

خلال يومين انتهوا من تهيئة البريمة للعمل على البئر، وكان كل شيء جاهزًا، لكنهم انتظروا مرور مسئولي الشركة المنتجة صاحبة الامتياز بكل أجزاء البريمة للتأكد من صلاحيتها وقدرتها على القيام بوظيفتها أثناء الحفر، وعندما يحدث ذلك يتم عمل خطاب قبول للبريمة بتاريخ ووقت محدد لبدء العمل؛ جاء مهندس الحفر الخاص بالشركة وكذلك مسئول السلامة

بها لاستلام البريمة قبل توقيع خطاب قبولها، فأخذهما الحاج بهاء في جولة لتفقد كل أجزاء ومعدات البريمة واختبار بعض المعدات والخراطيم وأجهزة التحكم وغرفة المولدات وكابلات الكهرباء والورش وأنابيب الحفر وغيرها، كان مصطفى يراقب الأمور من بعيد وينتظر ما ستؤول إليه الأمور سواء إن تم قبول البريمة أو طلب مسئولي الشركة إعادة تجهيز بعض الأشياء البسيطة، رأى مؤمن مصطفى يراقب ما يحدث فقال له واثقًا:

- لا تخشَ شيئًا، سيقبلونها غالبًا وربما نبدأ العمل خلال ساعتين.

- ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟

- ألا ترى أن الحاج بهاء هو من يتحدث إلى مهندسي الشركة؟! لو وجدا بعض النواقص لكان هما من يتحدثان ويسجلان في أوراقهما بعض الأشياء.

نظر مصطفى إلى مؤمن مندهشًا وقال بابتسامة:

- ذلك هو عامل الخبرة إذن.

- بالطبع يا زيزو، فأنا أعمل هنا قبل **3** سنوات وهذا وقت ليس بقصير.

- معك حق، لكن كيف تحملت العمل في هذا الوادي **3** سنوات؟!

- لا، لقد أخطأت فهمي، أنا أعمل في شركة (**DRILL**) منذ **3** سنوات وليس في هذا الموقع، لقد عملت هنا مع الشركة منذ شهرين فقط، أعرف أن هذا الوادي كئيب وغريب لكنه حظك يا صديقي، فلم يكن من حسن الحظ أن تبدأ عملك بالشركة في هذا المكان لكن ما باليد حيلة كما يقولون.

شعر مصطفى ببعض الإحباط قبل أن يقول باستسلام وحزن:

- لا تخبرني عن حظي، فأنا أعرفه أكثر من أي أحد.

- لكنني أعود وأفكر في هذه الشركة التي نحفر بئرها هذا، فهم يعيشون هنا منذ سنوات في هذه الأجواء الصعبة، أما نحن فنحفر لهم بئرين أو ثلاثة ثم ننتقل إلى شركة أخرى وموقع آخر، وربما من حسن حظنا أننا نعمل بفصل الشتاء، لو قدمنا إليهم صيفًا ما تحملنا هذا العمل، لقد أخبرني أحدهم أن درجة الحرارة هنا تتخطى الخمسين درجة مئوية في الصيف في أغلب الأحيان.

- الحمدلله على كل حال إذن.

عاد مصطفى يعاين ما يحدث في البريمة من فحص واختبار قبل أن يقول مصدومًا:

- يا إلهي، هذا الرجل كاد يسقط بينما يصعد سُلم البريمة.

نظر مؤمن حيث يشير مصطفى قبل أن يضحك ويقول:

- إنه يفضل السقوط على القبض على جانبي الدَرَج بكلتا يديه.

- هل تعرفه أيضًا؟

- لقد قابلته مرتين قبل ذلك، إنه المهندس مأمون مسئول السلامة بالموقع هنا، إنه يخشى الفيروسات والبكتريا، يخشى ملامسة الأشياء بيديه، دائمًا ما يضع يديه في جيبيه ولا يسلم على الناس كثيرًا، أخبرني أحد العاملين أنه يفتح الباب أحيانًا بمرفقه خشية لمسه بيده.

ذُهل مصطفى وتعجب من أمر هذا المهندس الذي يفعل هذه الأمور بسبب هواجسه العجيبة متسائلًا:

- ألهذه الدرجة؟!

- نعم.

- يبدو أنه يعاني نوعًا من الوسواس.

- لا أعرف، ربما تَعودَ ذلك من جائحة الكورونا في الأعوام السابقة، على كل حال هو رجل طيب، شديد التركيز والدقة، وهو ما لا يروق لمعظم الناس ممن يتعاملون معه.

- بعض الناس يحبون العشوائية يا مؤمن بل ويكرهون ويتأففون ممن يخالفهم في ذلك.

ضحك مؤمن والذي استدرك قائلًا:

- كذلك التركيز في كافة أمور الحياة قاتل وبغيض ولا يستسيغه الناس يا صديقي.

- نعم صدقت، كنت أتمنى لو أن بإمكاني تخطي بعض الأمور في حياتي دون تركيز وتفكير متعمق ممل يقتل الاستمتاع ببقية أمور الحياة.

- أشعر أن لديك ما تحكيه منذ رأيتك لكن ليس هذا الوقت المناسب صحيح؟

نظر مصطفى إلى مؤمن الذي ابتسم له بود، فبادله الابتسامة كذلك قبل أن يقول:

- لو احتجتُ إلى الحديث بشأن ذلك ستكون أنت أول من أحادثه.

- حسنًا يا صديقي، سأكون في انتظارك إذن.

مرت ساعتان ونصف حيث كان الجميع مصممين على مراجعة كافة الأمور على البريمة واختبار كل ما يلزم اختباره قبل الشروع في بدء العمل، وكما توقع مؤمن تمامًا فقد تم قبول البريمة في الساعة السادسة مساء وتم بدء الحفر فعليًا حينها.

****

الفصل الثاني

بالقرب من محطة الإنتاج

محطة الإنتاج أو منطقة التسهيلات هي المكان حيث يتم معالجة الزيت الخام وفصله من الماء والغاز المصاحبين له وكذلك شوائب الأملاح والعناصر الثقيلة لوضعه في الظروف القياسية القابلة للشحن ومن ثم عمليات التكريرللحصول على المنتجات البترولية كالسولار والبنزين وغيرها، وتتكون محطة الأنتاج من أجهزة الفصل الثلاثية والثنائية وكذلك مجمعات الآبار ومصافي الأملاح الذائبة قبل أن يصل الزيت الخام إلى صهاريج الإنتاج تمهيدًا لشحنه منها من خلال خطوط الشحن أو شاحنات نقل الزيت؛ كانت المحطة محاطة بسور من الأسلاك المعدنية المربوطة على زوايا حديدية تشد الأسلاك مع بعضها البعض مكونة سور دائري يحيط المحطة كاملةً، وعلى بعد خمسين مترًا من هذا السور كان عادل عيد يقوم بعمله حيث يعمل لحامًا بإحدى شركات المشروعات البترولية والتي تقوم بتصنيع صهريج إنتاج بسعة **5000** برميل زيت خام للعمل في محطة الإنتاج قريبًا، لم يكن عادل يشعر بالراحة في هذا الموقع، فلا زال يتذكر زميله كارم الذي كاد يموت داخل أحد الصهاريج في الصيف الماضي عندما كان على وشك الاختناق بداخله بينما يقوم ببعض اللحامات من الداخل،

ولولا أن مساعده كان معه حينها لما تم إنقاذه، كان كارم يسعل بشدة وكأنه يقاوم طلوع الروح، فازرق لونه وارتفعت حرارته واحمرت عيناه فجأة وكأنه ينازع الموت، أخرجوه بسرعة من الصهريج وعرضوه لهواء نقٍ ورشوا عليه بعض قطرات الماء حتى أفاق واستعاد وعيه فأخذوه إلى غرفته ليستريح لبعض الوقت وتابعوا حالته لمدة يومين حتى استقرت وعاد للعمل من جديد.

جلس عم علي اللحام بجانب الصهريج يلتقط أنفاسه لبعض الوقت قبل أن يعود لاستكمال عمله وكان يعمل مع عادل في لحام الصهريج، وطلب من عادل الخروج لتناول كوبًا من الشاي الساخن ونيل قسط من الراحة، وكانت غلاية الشاي وكذلك الشاي والسكر والأكواب على منضدة قريبة تبعد عنهما **10** أمتار فقط، خرج عادل ليجلس بجوار عم علي هذا العجوز الذي ناهز الخمسين عامًا ولو أنه يبدو في السبعين من عمره، طلب عم علي من مساعده أسامة أن يصنع لهم جميعًا شايًا ثقيلا حتى يضبط أمزجتهم، امتثل أسامة لأمر عم علي وذهب ليعد لهم شايًا بينما ركن عادل ظهره إلى الصهريج وأغمض عينيه وكأنه يأخذ قيلولة قصيرة، فالتفت إليه عم علي وقال:

- لم يحن وقت الراحة بعد، فلا زال أمامنا ما يقرب من عشرين يومًا للانتهاء من هذا الصهريج.

- أعرف يا عم علي، أحاول أن أريح ظهري فحسب.

- ظهرك؟! كم عمرك يا بني؟

- أنت تعلم أنني قد جاوزت الثلاثين قبل عدة أيام يا عم علي.

- هنيئًا لك يا عادل.

- كنت أتمنى أن أقضي هذا اليوم مع أسرتي ولكن...

- ما أكثر الأيام يا بني، المهم أن تنجز عملك وتعود إليهم سالمًا.

- أنا أضغط على نفسي وأقضي أكثر أيامي في الصحاري لأجلهم يا عم علي، وكل ما أخشاه أن يتهمني أطفالي عندما يكبرون أنني لم أكن معهم لمدة كافية.

سرح عم علي في هذه الكلمات الأخيرة لعادل الذي انتبه فقط لكلماته في هذه اللحظة التي سرح فيها عم علي الذي كان مُطلقًا بعدما خلعته زوجته منذ عشر سنوات وأصبح لا يرى ابنيه إلا قليلا، حاول عادل الالتفاف على الأمر فقال في قلق:

- لمَ تأخر الشاي هكذا؟!

- يا بني، إذا كنت اخترت أمًا صالحة لأولادك فقد ملكت نصف الدنيا أما النصف الآخر فهو نتاج سلوكك الشخصي في هذه الحياة تجاه هؤلاء البشر الذين تعاشرهم طيلة حياتك.

- هذا ما أتمناه يا عم علي، وأرجو أن يكون الله قد وفقني إليه.

- ربنا يسعدكم يا عادل يا ابني.

نظر عادل أمامه على مد بصره فوجد ذلك الرجل نادي الخفير الذي يؤَمن الموقع مع زميله موسى قادمًا باتجاههم، فقال لعم علي متسائلًا:

- ألم تنتهِ أزمة شركتنا مع هؤلاء البدو؟!

- بلى انتهت، لقد دفعت الشركة لشيخهم نافع غراب المال الذي طلبه كي لا يحدث ضرر لأي من معداتنا هنا، يعتقدون أنهم يحمون معداتنا بينما أعتقد أنهم من يهددونها أصلًا.

- لمَ إذن يأتينا هذا الرجل نادي؟!

نظر عم علي في نفس الاتجاه حيث استقرت عينا عادل، فقال بلا مبالاة:

- لا عليك يا عادل، لا بد أنه أراد أن يحصل على كوب من الشاي أو سيجارة من عمه علي الذي لا يتأخر عنه في أيهما.

ابتسم عادل وقال له:

- في هذه الصحراء كوب من الشاي وسيجارة بمثابة ثروة لأحدهم.

- وهذا من الدروس المهمة التي تعلمتها في حياتي من عملي بالصحراء، بعض الأشياء التي ليس لها قيمة تذكر قد تصبح ذا قيمة في ظروف مختلفة وأماكن وأزمنة مختلفة.

- هذا صحيح بالفعل أيها العجوز.

في هذه اللحظة وصل الخفير نادي منصور إليهم بينما يقدم لهم أسامة الشاي قائلًا:

- لقد صنعت لك كوبًا من الشاي يا عم نادي عندما رأيتك قادمًا نحونا.

ابتسم له عم نادي منصور الرجل الذي ناهز الأربعين عامًا صاحب الوجه المائل للحمرة والشعر الأسود الناعم المتدلي خلف أذنيه وقال في خبث:

- سلمت يداك يا أخي، ألا أجد معكم سيجارة إذن؟

أخرج عم علي علبة سجائره وأعطاه واحدة منها وقال:

- اتفضل يا شيخ نادي، ولا يهمك شيء.

- عِشتَ يا عم علي يا محترم.

أخذ الجميع يتناولون الشاي الثقيل الذي يناسب هذه البيئة الصحراوية القاسية، كان الشيخ نادي يلتهم سيجارته التهامًا بينما ينظر له الجميع، فكان يسابق أحدًا ما لا يراه غيره في تدخين سيجارته في أسرع وقت، وما أن انتهى منها حتى طلب أخرى من عم علي الذي لم يمانع أيضًا، فأخرج علبة سجائره مرة أخرى وأعطاه سيجارة أخرى قبل أن يقول له ممازحًا:

- لقد ضبطنا لك مزاجك اليوم على أكمل وجه يا شيخ نادي، سجائر وشاي ونقود و...

نظر إليه الشيخ نادي متعجبًا ثم قال:

- أي نقود تقصد؟!

- النقود التي دفعتها شركتنا لكم يا شيخ.

- نعم، هذه نقود الشيخ غراب صاحب الأرض التي تعملون جميعًا فيها، وليست أموالي على كل حال.

هنا تدخل عادل وقال بلؤم:

- لا بد أن الشيخ غراب يدفع لكم منها يا عم نادي، وإلا ما ضيقتَ علينا أعمالنا حتى ندفع لكم.

- إن لم نفعل ذلك يا أخ عادل سيرسل الشيخ غراب غيرنا ليضيقوا عليكم أكثر وقد يفسدون أشياءكم حتى تدفعوا له ماله.

- الحمد لله، فقد دفعنا على كل حال يا شيخ، وانتهى الأمر على خير.

سكت الجميع لبعض الدقائق، فأراد عادل أن يستوضح أمرًا ما فسأل متعجبًا:

- ولمَ سمي هذا الوادي بوادي جهنم يا شيخ نادي؟!

نظر نادي إلى عادل قبل أن تضيق عيناه قليلا ثم يفتحها بطريقة مخيفة ويقول:

- الحر هنا شديد وقد اعتبره البدو الذين ارتحلوا من مكان لآخر منذ زمن حتى وصلوا إلى هذا الوادي كحر جهنم، حتى أن الوادي مليء بالهضاب والكهوف وبه مناطق منخفضة تحبس المياه والأمطار أيامًا وشهورًا، ما كان ليعيش هنا بشر لولا اكتشاف حقل البترول هذا.

- حمدًا لله أننا جئنا هنا في فصل الشتاء رغم أن الجو حار نوعًا ما أثناء النهار.

- وهناك شيئًا آخر يا أخ عادل، كنت لا أود إخباركم به لكنكم قد تسمعون به قريبًا من عمال هذه المحطة التي أمامكم.

- وما هو يا شيخ؟!

- وادي جهنم أخذ هذا الاسم لسبب آخر كذلك.

تهلل وجه عادل الذي اعتقد أن الجو الحار ليس سببًا لتسميته بذلك الاسم بينما امتعض وجه أسامة الذي خشي مما سيقوله الشيخ نادي الآن، فأدار وجهه تجاه محطة الإنتاج متحاشيًا مواجهة نظر الشيخ نادي الذي أردف مرعوبًا:

- هذا الوادي لا يسكنه نحن فقط، بل يسكنه الجن والشياطين أيضًا.

لم يستطع عادل كتمان ضحكته، فضحك طويلًا حتى أن العم علي حاول إثناءه عن ذلك فلم يستطع، فقال عادل الذي لا زال يضحك:

- جن وشياطين؟! إننا هنا منذ عدة أيام ولم نقابل منهم أحدًا حتى الآن.

- لا تسخر من كلامي يا بني، فأنا قد عشت هنا طويلا لأعرف ما أتحدث عنه، أما أنت فلم تر غير ما اختبرت هنا في موقع الشركة بالقرب من محطة الإنتاج وفي معسكر الإقامة، الوادي كبير يا ولدي ثم إنك لم تر إلا نهاره أما ليله فلم تختبره بعد ولا أحب أن تجربه يا ولدي.

أثارت هذه الكلمات الخوف في صدر عادل الذي لم يبين فزعه بل اكتفى بالسكوت الذي أطبق على الجميع حتى قام الشيخ نادي وودعهم وغادر إلى البريمة لمتابعة عمله بتأمين أماكن العمل والإقامة بالموقع مع زميله موسى.

تابع عادل بعينيه الشيخ نادي وهو يسير مبتعدًا عنهم بينما سرت في جسده قشعريرة لم يعرف مصدرها، فهو لم يكن أبدًا شخصًا جبانًا أو شخصًا يخشى ما تحمله الأيام لكن الشيخ نادي نفسه بدا خائفًا بينما يتحدث عن وادي جهنم والذي عنى أنه وادي الشياطين.

هل يعقل أن يكون بينهم جن وشياطين يسكنون معهم في هذا الوادي؟ ماذا يفعلون هنا؟ هل ينقبون عن بترول كذلك؟ هل راقهم وجود بشر بأرضهم؟ هل حاولوا طردهم من واديهم ولم ينجحوا؟ هل هم موجودون فعلا؟ هل يمكنهم إيذاء هؤلاء البشر بقسوة؟ لم يكن عادل يعرف الكثير عن هذا العالم، يعرف بالطبع أن العالم مليء بممالك من البشر والطيور والحيوانات والأسماك والنباتات وكذلك ممالك الجن ومردة الشياطين لكنه لا يحب التفكير في ذلك الأمر، كل ما أراد التفكير به هو العودة سالمًا لبيته وأولاده بعد ما يقرب من عشرين يومًا، هذا كل ما تمناه وحلم به بينما يفكر في كل هذه الأمور منذ ذهاب الشيخ نادي الذي بدا وكأنه ألقى قنبلة مدوية وتركها وفر بعيدًا.

ترك عادل كل هذه الأفكار عندما حثه العم علي على النهوض لاستكمال العمل داخل الصهريج فقام من فوره وشغل ماكينة اللحام وضبطها جيدًا ثم دخل الصهريج بعد أن ارتدى واقي الوجه الخاص به وشرع في استكمال عمله.

انتهى اليوم مع غروب الشمس وحلول الظلام وكما هي العادة في حقول البترول حيث ينتهي العمل مع آخر ضوء للشمس، فهذا ما تقتضيه تعليمات السلامة داخل المواقع البترولية لعدم توافر مصادر للضوء كافية لاستكمال الأعمال، خرج عادل من الصهريج مع غروب الشمس في الخامسة مساءً لكنه كان يحمل همًا ثقيلا لا يعرف سببه، عاد إلى معسكر الإقامة ثم اغتسل وبدل ثيابه قبل أن يصلي المغرب ويتجه إلى صالة الطعام لتناول عَشائه مع زملائه، وأثناء تناول العشاء سمع بعض العمال والفنيين في الموقع يتحدثون حول تلك الأفعى العجيبة التي رأوها بالقرب من محطة الإنتاج خلف أحد الأحجار الكبيرة والتي اختفت فجأة دون أن يمسكوا بها ويقتلوها كما يفعلون دائمًا بتلك العقارب والثعابين السامة التي دائمًا ما يجدونها ويقتلونها في الحال باستخدام الحجارة أو القطع الخشبية والحديدية الطويلة التي تكون بالقرب منهم حيث يضربونها مباشرة على رأسها؛ جدير بالذكر أن بعض هذه الأفاعي أو الثعابين والتي تسمى بالطريشة يمكنها القفز من الأرض وحتى مسافة عدة أمتار ولارتفاع عدة أمتار كذلك؛ كانت هذه الكائنات المخيفة شائعة الوجود في هذه البيئة الصحراوية بطبيعتها الجبلية وكذلك المناخية القاسية، ولا يمكنك رفض هذه البيئة فنحن من اقتحمناها وأردنا الحصول على خيراتها وثرواتها فلا يمكن رفض سكانها الأصليين وأهلها الحقيقيين، فبعد وقت معين طال أو قصر تنضب هذه الثروات وتعود الأرض إلى أهلها من خنافس وأفاعي

وعقارب وجن وشياطين وقليل من البدو الصامدين ممن عاشوا معهم وألفوا إقامتهم بينهم.

كان العمال يتحدثون عن هذه الأفعى البيضاء الأنيقة التي تشع ضوءًا لا يعرفون مصدره ولا سره، كانت سريعة للغاية بطول لا يتجاوز المتر في كل الأحوال، أما ذيلها فكان قصيرًا رفيعًا، كانت تلك الأفعى ساحرة كما وصفها أحد العمال الذي اعتقد أنها لم تكن أفعى عادية، كانوا يتمنون أن يمسكوها ويقتلوها ثم يحرقوها كما تعودوا طوال إقامتهم في وادي جهنم، كان لحرقهم إياها سببًا لا يرقى للعلم والمنطق، فقد كانوا يعتقدون أن للثعابين والأفاعي أهل وأصدقاء يبحثون عنهم وإن وجدوهم قتلى فإنهم سيتعرفون على قتلتهم حيث أن الأفاعي والثعابين تحتفظ بصور قتلتهم في أعينهم لبعض الوقت لذا كانوا يحرقونهم حتى لا يجدهم أهلهم فيعرفون القاتل أو القتلة من عمال الموقع فيهاجمونهم فيما بعد؛ كانت تلك النظرية الشائعة عن الأفاعي والثعابين تسود معظم حقول النفط في الوطن العربي وربما كان السبب في انتشارها البدو أنفسهم الذين أذاعوها بين عمال حقول البترول.

كان عادل يسمع هذه الأخبار والأحاديث حول تلك الأفعى من العمال من حوله، كان يكتفي بالابتسامة والنظر إليهم بين الحين والآخر دون المشاركة فيها حتى انتهى من وجبة العشاء ثم غسل يديه وتوجه إلى

المسجد لأداء صلاة العشاء ثم بعد فراغه منها عاد إلى غرفة نومه التي كانت تحتوي على سريرين أحدهما له والآخر لعم علي، وما أن وضع رأسه على وسادته حتى غط في نوم عميق دون تفكير في أي مما مر به في هذا اليوم الطويل المليء بالأحداث والأسرار والغرائب، وكان هذا النوم هو كل ما يحتاجه للتخلص من كل هذه الأفكار والأحداث التي ملأت رأسه وأهمت صدره وقلبه، أما العم علي فكان يذهب بعد صلاة العشاء إلى غرفة الترفيه حيث يشاهد فيلمًا ما مع بعض العمال أو يلعب الورق والدومينو والنرد مع أحدهم، كما أنه يتمكن من معرفة أخبار كل ما يحدث في وادي جهنم أو كل ما حدث سابقًا قبل بضع سنوات، فهناك من البشر من يحب سرد الحكايات والأحداث القديمة سواء كانت حقيقية أو أسطورية، فلا يهم ذلك، ما يهم هو أن يقضوا الليل في حكاية ممتعة تثير الضحك والمزاح وتمحو آثار التعب والإرهاق والوحدة والعزلة الموحشة في وادي جهنم.

كان من بين تلك الحكايات التي عرفها العم علي في هذه الليلة حكاية المارد الذي رأه أحد أفراد الأمن بعد الفجر بقليل، ذلك المارد العملاق الذي كان يطول ويقصر وعندما اتجه إليه فرد الأمن طه سرور ليتبين كنهه فرّ هاربًا أمامه فطارده طه حتى اختفى خلف أحد الهضاب العالية والتي خشى طه صعودها خلفه حتى لا يؤذيه المارد، كانت تلك القصة قبل خمس سنوات ولا زال طه يُعيَر بها باعتباره كان نائمًا دون غطاء كاف في شتاء قارص رغم

أن الواقعة كانت أثناء نوبة عمله لا راحته لكن الجميع سخروا منه وتهكموا عليه واتهموه بتناول الاستروكس وعقار الصراصير، في هذه البيئات الصحراوية تضيع الحقائق وسط الأساطير والخيالات والخزعبلات والأكاذيب حتى النهاية، ذلك أن الحقيقة ليس لها صاحب ولا يهتم بالبحث عنها وإيجادها أحد، وهذه هي الحقيقة الوحيدة في الوادي... وادي جهنم.

****

الفصل الثالث

اللـــقـــــاء

عاد المهندس ناصر الديب من إجازته واستلم عمله في الموقع كمدير للحقل بوادي جهنم، وما أن علم أن صديقه المهندس أيمن داغر هو مهندس الحفر المسئول عن حفر البئر الجديد بالحقل حتى ذهب إليه على البريمة ليلتقيه ويسلم عليه ويدعوه إلى تناول الغداء سويًا في اليوم التالي إذا سمحت ظروف عمله على البريمة، وصل المهندس ناصر إلى موقع البريمة بسيارته ذات الدفع الرباعي وكانت البريمة تبعد مسافة كيلو متر واحد فقط عن معسكر الإقامة والذي يوجد به مكتب مدير الحقل، ذهب إلى كرفانه وطرق الباب فأذن له المهندس أيمن بالدخول وما أن رأه حتى قام من مقعده وابتسم إليه وعانقه بحرارة واشتياق حيث لم يتقابلا منذ شهرين أو أكثر قليلًا، دعاه المهندس أيمن للجلوس وقدم له مشروبًا باردًا ثم سأله باهتمام:

- كيف حالك يا صديقي؟

- الحمدلله على كل حال، وأنت؟ لقد عرفت مؤخرًا بأمر زواجك الثاني هنيئًا لكما.

- أشكرك يا صديقي، هيا افعلها أيضًا، أعرف أنك فكرت بالأمر يومًا ما.

أطرق ناصر لبعض الوقت وكأنه تذكر معاناته مع زوجته ثم قال:

- هذا الأمر محفوف بالمخاطر يا أيمن، صحيح أنني لا زلت أواجه بعض المشاكل مع زوجتي لكنني لا أستطيع أن أضمن أنني لن أواجه نفس المشاكل أو غيرها مع تلك الزوجة الثانية التي تتحدث عنها خاصة وأنني أصبحت حاد المزاج والطباع منذ عدة سنوات.

ضحك المهندس أيمن من آخر كلمات صديقه وقال في لؤم ومرح معًا:

- يبدو أنك تعترف أنك سبب لهذه المشكلات إذن.

- المشكلات دائمًا لها وجهان وطرفان يا صديقي، ربما أنا أبدأ المشكلة لكنها كذلك لا تنهيها، بل تزيدها أو تسمح بامتدادها، وكذلك أنا، وكل منا يعتقد أنه على صواب دون أن يتفهم ظروف أو أبعاد الآخر.

ضحك أيمن مرة ثانية ثم قال:

- يبدو أن كثرة المشكلات جعلتك حكيمًا إذن يا ناصر.

- المهم أخبرني كيف حالك مع زوجتيك؟

- أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام، وأتمنى ألا يكون ذلك هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

ضحك ناصر كثيرًا على دعابة صديقه الذي تبعه في الضحك قبل أن يقاطعه ناصر قائلًا:

- يجب أن تأتي إلى مكتبي غدًا لنجلس سويًا ونتذاكر الماضي ثم نتناول الغداء معًا.

تبدلت ملامح أيمن قليلًا قبل أن يقول ممازحًا ناصر:

- ومن يحب أن يأتي إلى مكتبك هذا بعد الآن يا رجل؟!

تحولت ابتسامة ناصر إلى الجدية والتعجب معًا ثم قال مستغربًا:

- ولمَ؟!

- ألم تعلم بأمر هذه الأفعى الغريبة التي رأوها بالقرب من مكتبك ولم يتمكنوا من قتلها؟!

عاد الهدوء نسبيًا إلى ناصر الذي صمت لهُنيهَة ثم قال:

- يا رجل!! لقد عرفتُ بهذا الأمر بالطبع، أنت في صحراء، هذا الأمر طبيعي وأنت تعرف ذلك، ولا بد أنك واجهت مثل هذه الأمور طوال عملك في هذا القطاع الشاق لأكثر من خمسة عشر عامًا.

- لكن هذه الأفعى غريبة الشكل واللون يا ناصر كما سمعتُ.

- ربما هناك بعض المبالغات من بعض الناس ممن تناقلوا الأمر، فلا تصدق كل ما تسمع يا صديقي.

- ألم تكن بيضاء إذن؟!

- بلى كانت كذلك، لكننا رأينا أخرى سوداء تمامًا قبل شهر أيضًا وهناك أفاعٍ بنية بنقط فاتحة وغيرها الكثير، إنها بيئتهم وأجواؤهم يا صديقي، فلا داعٍ للقلق.

- بعد كل ذلك تدعوني ألا أقلق، أنا لستُ قلِقًا بل مرعوبًا يا ناصر.

اعتقد ناصر أن محاولة طمئنة أيمن لن تكون مجدية، فأراد ممازحته بتخويفه أكثر فقال بصوت بدا مرعبًا بالنسبة إلى أيمن:

- بالمناسبة، بعض هذه الزواحف المخيفة من الجن والشياطين.

شعر أيمن بالصدمة وسرت قشعريرة قوية هزت جسده بالكامل ثم قال بخوف واضح:

- لا أحب الكلام في هذه الأمور يا ناصر، دعنا نقوم بعملنا وننجز حفر هذا البئر بأمان ونعود إلى بيوتنا سالمين يا رجل.

- لكنها....

- أعرف أن الجن والشياطين موجودون ويحيطون بنا ويروننا دون أن نراهم، وأنهم ممالك وعوالم أخرى موجودة، فهذا ما أخبرنا به ديننا، لكنني لا أحب الحديث حولهم، كما أعرف أنك منشغل بهذا الأمر وتقوم بعمل رُقية لبعض الناس ممن يصيبهم المس والصرع وغيره.

نظر ناصر لصديقه في شك ثم قال:

- ألا زلت تذكر ذلك البئر الذي حدثت به بعض الأمور الغريبة أثناء تفجير طبقة الإنتاج؟!

شعر أيمن بالضيق من هذا الأمر ثم قال:

- لكننا تمكنا من القيام بالأمر في النهاية.

- ما لا تعرفه أنني استخدمتُ جيشًا من الجن المسلم لمحاربة تلك المملكة من الجن الكافر التي سكنت المنطقة حول البئر وانتصرنا عليهم وأجليناهم عن المنطقة.

لم يتمالك أيمن نفسه من الضحك والصياح على ما قاله صديقه، حاول الكلام أكثر من مرة ولكن منعه الضحك حتى البكاء في كل مرة، فأردف ناصر:

- لا تسخر مما لا تعلم يا أيمن.

- أنا... آسف حقًا يا صديقي، فأنا لا أسخر منك لكن ما تقوله لا يمكن تصديقه، ما تقوله هو فيلم أمريكي خيالي للغاية.

- لقد رأيت بعض هذه الأفلام وكانت مثل ذلك بالفعل.

- على كل حال، حتى بعد التفجير لم ينتج البئر ولا حتى نقطة زيت خام واحدة.

بدا التحسر على وجه ناصر الذي قال وقد أحنى رأسه في حزن:

- للأسف.

- أنا فقط يا ناصر أحب أن أقول لك أن الجن والشياطين موجودون كما نحن البشر، لكن كل ما يحدث هو بأمر الله وقضائه، نعم قد يمس الشيطان بعض الناس خاصة من ضعيفي الإيمان لكن ذلك بأمر الله، وهو ابتلاء منه ليختبر إيمان عباده وصبرهم، لكن الله لم يسلط الجن

والشياطين على البشر فيسومونهم سوء العذاب، وإلا لكان الشيطان يحكم الآن.

لا زال يرى نفسه قابضًا على بعض الكتب في يده اليمنى ذاهبًا إلى درس مادة الرياضيات وكم كان يتمنى لو يلتقيها صدفة في طريقه كما يلتقيها صدفة في المدرسة طوال سنوات المرحلة الثانوية، من بعيد رأها وكم تمنى لو كانت هي وليست فتاة أخرى تشبهها طولا وعرضًا، دقق النظر وتفحصها طويلا عندما اقتربت أكثر، كانت هي بالفعل، لقد كانت ولاء، كانت عائدة من بعض دروسها، لفحه احمرار وجنتيها وبريق عينيها الخضراوين، بلا شعور خفض نظره واكتفى بفحص ثرى الأرض من تحته حتى مرت بجانبه وأحس بعبيرها في أنفه واحتفظ به أيامًا ولياليٍ حتى أنه كان يستنشقه ويتلمسه عندما يفتح ذات الكتاب الذي نال شرف لقياها معه وإن لم يتحقق اللقاء، كان يتمنى لو نظرت إليه وعطفت عليه بلمحة من سهام عينيها الآسرة، لكنها لم تفعل، لم يستطع أن يمنع نفسه من الالتفات وراءه ليملأ عينيه وقلبه من هواها فكانت المفاجأة أن وجدها تنظر إليه بعدما تجاوزته، لم يصدق ما حدث، لقد شعرت بالخجل عندما رأها تنظر إليه، صارت وجنتاها كحبتي تفاح شديد الاحمرار، لقد أرادت أن تخبره أنها تبادله هذا الإعجاب وهوى النفس والقلب والتهاب المشاعر، كان في حاجة للشعور بهذا الإحساس الذي أحسه الآن، إحساس الحب والقبول ممن امتلأ قلبه بحبها، وامتلأ عقله بالتفكير بها ليلا ونهارًا، كانا جارين تفصلهما بعض

الشوارع الصغيرة والبيوت المنخفضة، كانت تجمعهما بعض المناسبات فكان ينتهز الفرص ويتحينها لينظر إليها، وكل ما أراد كان نيل بعض النظرات من عينيها والبسمات من شفتيها، كانت هذه المواقف البسيطة واللحظات الماتعة القصيرة هي كل ما احتفظ به في ذكرياته، أخفاها في أحد صناديق ذاكرته والذي كان على شكل قلب أحمر به سهم من عينيها، كان يفتح هذا الصندوق بين الحين والآخر أثناء فترة الجامعة، وأثناء غربته فيها ليجد بعض السعادة في هذه الذكريات الرائعة، مرّ الوقت وتخرجا وعاد إلى أهله وبيته بعد انتهاء فترتي الدراسة والخدمة العسكرية، كان كل ما أراده أن يطمئن عليها ويراها كما تعود أن يراها، لم يتكلما أبدًا كحبيبين أو عاشقين لكنهما تحدثا أكثر من مرة كزميلي دراسة، كانا خجولين متفوقين، أرادا أن يشق كلاهما طريقه حتى يكونا مؤهلين بعد ذلك لإكمال ذلك الحب ثم السير بثبات نحو زواجٍ لم يُكتب له الحدوث، فما حدث أن بعد انقضاء مدة الخدمة العسكرية والبدء في رحلة البحث عن عمل بذلك المؤهل الراقي النادر- بكالوريوس هندسة البترول والتعدين- تمت خطبتها بالفعل بل وبعد شهر واحد تقريبًا تمت دعوته إلى حفل زفافها، لم يشعر قط بالانكسار قبل ذلك اليوم، كانت لحظة من الهزيمة والخذلان لم يتجرع مثلها قط، أخذ يلعن كل شيء حينها، الظروف والأزمات وسوق العمل وضعف الإمكانيات والركود الاقتصادي؛ كان ينتظر الفرصة وكان قادرًا على انتهازها لو أتت لكن لم يحدث، لقد تمنى أن يحصل على الفرصة

لأجلها لا لأجل نفسه، كان يتمنى لو اقترب منها خطوة واحدة من خلال نيل وظيفة مرموقة، لكنه لم يُوفق في ذلك الأمر، تزوجت ولاء وانتقلت للعيش مع زوجها في المدينة، وبقي مصطفى يعاني وحده، يعاني مرارة الأيام والفقد والجبن والفراغ، الفراغ الذي كان يقتله بسكين حاد، يقطع به كل خلية من جسده، ويُدمي كل أوصاله فلا يستطيع الحراك، وليته قتل فيه الشعور والإحساس بالقهر والهزيمة والحنين للمحبوب، كان يتمنى لو حصل على فرصة واحدة ليخبرها كم أحبها وحرص على الارتباط بها للأبد، لكنه ما كان ليفعل ذلك بلا وجه حق، بلا ارتباط يرضاه هو كما يرضاه المجتمع والأهل، لم تأتِه الفرصة التي أرادها قط؛ كان يريد أن يقتل الحب والفراغ كي يعيش فتقدمَ لهذه الوظيفة في شركة الحفر وقُبل فيها بالفعل، فاستطاع قتل الفراغ لكنه لم يقتل الحب، ومن يمكنه قتل تلك العاطفة التي تحرك القلب والعقل والضمير، بل وتحرك الجيوش للحرب أحيانًا.

كان نائمًا على سريره، يتحرك يمينًا وشمالا، كان مضطربًا متوترًا، لا يعرف إن كان نائمًا أو مستيقظًا، لم يشعر بنفسه حتى التقطت أذناه بعض الأصوات من حوله، كان الصوت هو صوت مؤمن ووليد يوقظانه لتناول وجبة الإفطار سريعًا قبل التحرك نحو البريمة، انتبه إليهما، وأخذ ينظر بإمعان وكأنه يحاول تذكرهما فقال وليد متعجبًا:

- أين سافرتَ يا رفيق؟

نظر إليه مصطفى يتأمله طويلًا ولم يجيبه، كان يريد أن يتأكد أنه عاد إلى عمله ببريمة الحفر، كان يتأكد من أن تلك الأحلام لم تكن إلا ذكرياته التعيسة والتي ما زالت تراوده بين الحين والآخر، دفع صمتُه صديقه مؤمن إلى سؤاله بقلق:

- مصطفى، أأنت بخير يا صديقي؟!

أفاق مصطفى بعد لحظات وقال بهدوء أضجرهما:

- مالكما؟! أنا بخير، لقد أيقظتماني بفظاظة، هذا كل ما في الأمر.

- أهكذا؟

- نعم، أحضرا لنا الإفطار حتى أغتسل وأتجهز للعمل.

نظر له زميلاه بغيظٍ واستنكار لم يخفَ على مصطفى، فقال أحدهما:

- لطالما قلتُ أن لديك قصة عجيبة وكبيرة، والآن اذهب واغتسل بسرعة كي لا نتأخر على زملائنا الذين أهلكهم العمل طوال الليل.

- حسنًا يا مؤمن.

كان عادل يعمل في لحام صهريج الإنتاج حيث كان يقوم بعمل لحامات الجوانب في منتصف الصهريج تمامًا وكان يرتكز على سقالة حديدية ليتمكن من القيام بعمل لحامات ترتفع حوالي خمسة أمتار من أرضية الصهريج، كان يعمل بجد كبير للانتهاء من تسليم الصهريج في أقرب وقت، لقد افتقد زوجته وطفليه كثيرًا، بعد ساعتين متواصلتين من العمل، شعر بحاجته لتناول كوب شاي ساخن ومهاتفة زوجته للاطمئنان عليها وعلى

أطفاله، خرج من الصهريج وصنع لنفسه كوبًا من الشاي وحمله بيساره، ثم أخذ هاتفه وابتعد عن الصهريج ثم أخذ يهاتف زوجته في ود واشتياق، كان يبتسم أحيانًا ويتحدث بجدية أحيانًا، فقد كانت تشتكي له من طفليه الذين يلهوان كثيرًا ولا يسمعان كلام والدتهما، فكان يدعي الغضب والجد أحيانًا كي يخيفهما ليسمعا كلامه وينتهيا بنواهي والدتهما، ثم ما يلبث أن يحنو عليهما ويمازحهما، فما كان ليقدر على إغضابهما في نهاية الأمر، فكل ما يهتم له الأب هو راحة أسرته وإسعادهم، فهذا بالضبط ما يجبره على تحمل ظروف عمله الصعبة، وهذه الأجواء القاسية، والبيئة المخيفة؛ كان يتحدث لزوجته وطفليه بحب وافتقاد واضحين، كان يتحرك للأمام وللخلف، ينظر أحيانًا للأعلى وأخرى للأسفل، وفجأة شعر بالصدمة، وسري الرعب في أوصاله ونبضاته التي تسارعت، لقد كان ذلك الأفعوان الأسود القاتم مختبئًا خلف صخرة متوسطة الحجم، وينظر له في تحدٍ بعينيه المخيفتين، ارتعد عادل وسقط كوب الشاي من يده التي تسمرت فجأة وكأنه أصبح بلا أعصاب تسيطر على سكناته وحركاته، بعد لحظات من الرهبة، أغلق الهاتف النقال ووضعه في جيبه، واستدار يبحث عن حجر أو صخرة صغيرة ليضربه على رأسه، وخلال ثوانٍ معدودة حصل على ما أراد لكنه استدار ليجد الأفعوان قد فر إلى حيث لا يعلم، أخذ ينظر إلى الصخرة حيث اختبأ الأفعوان، لم يجد شيئًا، دقق النظر وأعاده مرة ومرات فلم يجد شيئًا، هل فرّ الأفعوان؟ أخذ ينظر حول الصخرة وتحتها بحذر، ابتعد قليلا وأخذ يبحث

فلم يجد أثر حتى لحركته في الرمال اليابسة، هل خانته عيناه؟ هل رأه حقًا؟ هل كان ذلك المشهد حقيقيًا؟ أم إنها الأوهام والخيالات في صحراء ووادٍ تكثر فيه التهيؤات والسرابات.

عادت زوجته تتصل به لتسأله عما حدث ولمَ انقطع الاتصال وتطمئن عليه، فأخبرها أنه بخير وأن التغطية في هذا المكان ليست جيدة كما تعلم، ثم أخبرها أن عليه العودة لاستئناف عمله فودعته وأخبرته أن يتصل بها في المساء ليطمئنها عليه ويطمئن عليهم، فأخبرها أنه سيفعل ثم أغلق الهاتف، وعاد ليفكر فيما حدث قبل قليل هل حدث فعلا أم أنه خُيل له ما رأى؛ أخذ يتساءل أي مكان ساقته الأقدار للعمل به، جن وعفاريت وشياطين وأفاعٍ بيضاء وسوداء، اتجه إلى الصهريج ليعاود العمل مرة أخرى بعدما أدرك أن ثمة أمر مريب يحدث في هذا الوادي، وادي الجن.

****

الفصل الرابع

حالة من الجُنـــــــون

قبل منتصف الليل بقليل في ليلة باردة جدًا في هذا الوقت من العام، كان مصطفى على وشك الانتهاء من مناوبته عندما طلب منه الريس محمود فحص خط الشعلة للتأكد من عدم خروج غاز من البئر أثناء حفره، كان الخط متصلا بالبئر من خلال مجمع الخانق للتحكم في حجم السريان الخارج إلى حفرة الشعلة والتي تبعد حوالي مئة متر عن البئر، لم تكن بالمسافة الكبيرة في هذه الصحراء الشاسعة لكن البرد القارس الذي يشعر به مصطفى وكذلك قرب انتهاء مناوبته جعلاه يشعر بالضيق من القيام بهذا الأمر، لكنه أضاء مصباحه الكهربائي الصغير ليستطيع رؤية ما هو بصدد فحصه وكذلك ليسهل على نفسه الحركة في هذا الليل المظلم، ببطء وهدوء تحرك في اتجاه خط الشعلة حتى وصل إلى الحفرة ووجه مصباحه ليرى إن كان هناك غازات تخرج من البئر، لكنه لم يجد شيئًا مما عني أن الأمور على ما يرام وأن البئر تحت السيطرة، اطمأن مرة وأخرى ثم بدأ العودة إلى البريمة مرة أخرى حين سمع بعض الهمهمات عن جانبه الأيمن ومن خلفه، كانت أصوات لا يعرفها، ولم يستطع تمييزها، تبدو أصوات لبعض الحيوانات أو شيء من هذا القبيل، توقف عن السير فجأة ثم التفت للوراء

ووجه مصباحه الكهربي فلم يجد شيئًا، ثم وجهه عن يمينه فلم يكن هناك ما يصدر صوتًا، شعر ببعض الخوف لكنه استكمل طريق عودته، فإذا به يشعر أن هواءً ساخنًا يلفح مؤخرة رأسه وأذنيه، سرت القشعريرة في رقبته و معدته وقدميه وأحس بعجزه عن السير فتوقف فجأة والتفت للخلف مرة أخرى، وأضاء المصباح ووجَهَه بعيدًا فخُيل إليه أن ثمة رجل يتوشح بالسواد يراقبه من بعيد خلف حفرة الشعلة بعشرات الأمتار، هز رأسه بقوة في عدم تصديق، ثم أعاد توجيه مصباحه الكهربائي مرة أخرى فلم يجد شيئًا، ارتعدت فرائسه مرة أخرى، وشعر أن هناك من يصفعه على جانبي وجهه، حاول حماية وجهه من هذا المتهجم الخفي الذي لا يراه، حاول الصياح بأعلى صوته لكنه لم يستطع، فما كان منه إلا أن جرى بأقصى سرعة لديه والتي كان منبعها الخوف ومحاولة النجاة من هذا الشيء الذي يعبث به ومعه، ما أن وصل إلى البريمة حتى سقط أمام زملائه الذين شعروا بالصدمة والخوف من هيئته وحاله، هرعوا إليه وحملوه إلى طبيب البريمة الذي كان يغط في نوم عميق في هذه الأثناء.

أيقظ مسئول البريمة لمناوبة الليل الطبيب على الفور، وهرع به إلى غرفة العيادة لإنقاذ هذا الشاب الذي ربما تعرض لأزمة قلبية أو عصبية أو صدمة مفاجئة أفقدته الوعي والنطق معًا، بعد دقائق استفاق مصطفى الذي لم يكن قادرًا على النطق في هذه اللحظات لكن الدكتور عمرو فحصه واطمأن على مؤشراته الحيوية وتأكد من كونه أصبح على ما يرام بعد أن

حقنه بمادة مهدئة ووضع له محلولًا أنعشه بعض الشيء حتى أفاق، طمأنهم الدكتور عمرو عليه وطلب منهم العودة إلى مزاولة أعمالهم وجلس مع مصطفى ثم قال بهدوء وابتسامة رقيقة:

- الحمدلله، لقد أصبحتَ بخير، لقد أيقظوني بسببك يا سيد مصطفى، والآن لن أرضى أو أقبل إلا أن تقص عليّ ما حدث لك بالضبط، خذ وقتك وأفق من صدمتك وقتما تشاء، فقد أقلقت راحتي ولن أنام الآن على كل حال.

ابتسم له مصطفى الذي شعر ببعض التحسن، كان الدكتور عمرو شابًا لم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، كان شابًا هادئًا باسمًا يعامل الجميع باحترام وتقدير، هو يعلم مقدار هذا الإرهاق الذي يصيبهم بسبب طبيعة عملهم الشاقة وكذلك الظروف الصعبة التي يعملون فيها، فلم يكن ليشق عليهم بأي طريقة بل كان لطيفًا مع الجميع، كان يعرف أن الجميع بما فيهم هو يستحق هذه المعاملة الطيبة الرفيقة، ففي الفيافي أنت تعاني نفسيًا وعصبيًا وجسديًا مهما كان منصبك ووضعك الوظيفي بين العاملين، ومهما كانت رفاهيتك في هذه الصحراء القاحلة، فأنتَ تعاني بلا أهل أو أصدقاء أو مكان يمكنه احتضانك، فقط تنظر يمينًا ترى اصفرار الأفق، تنظر يسارًا ترى رمالًا، تنظر بالأسفل لا ترى إلا الرمال والصخور، تنظر للأعلى فلا تجد لك إلا الله يؤنسك في هذه الصحراء.

ذهب الدكتور عمرو إلى غرفته بجانب العيادة ثم أحضر بعض الأطعمة والعصائر وقدمها إلى مصطفى الذي رفض وشكره لكن الدكتور عمرو أصر على أن يتناولها مصطفى ثم قال له:

- لا تقلق، ستدفع ثمنها بعد قليل.

نظر إليه مصطفى متعجبًا مشيرًا بيديه وعينيه بعلامات التعجب، فضحك الدكتور عمرو ثم قال بمكر:

- لن تدفع لي مالا بل ستحكي لي سبب صدمتك تلك بالتفصيل.

ابتسم مصطفى وقال بهدوء:

- سأحكي لك يا دكتور عمرو، لا تقلق بشأن ذلك.

ابتسم له عمرو عندئذ وكأنه كان يستدرجه ليشجعه على الكلام ثم قال بحماس:

- هذا هو يا رجل، تكلم وأخرج صوتك كي أطمئن عليك.

مكثا مصطفى وعمرو في العيادة ما يناهز الساعتين يتحدثان ويتسامران؛ حكى له مصطفى كل ما حدث له بالقرب من حفرة الشعلة التي ذهب إليها بمفرده في منتصف الليل، أخبره عمرو أنه ما كان عليه المخاطرة بالذهاب وحده في هذا الليل الدامس، بل كان عليه أن يذهب مع أيٍ من زملائه، فليس الوقت نهارًا ليراه أحد ما لو حدث له مكروه، فلو سقط بعيدًا عن البريمة لما شعر به أحد وربما فقد حياته حينها للأبد، وافقه مصطفى على ذلك، وأخبره أن ذلك درس للعمر كله ولن ينساه ما أحياه الله.

كان عم صابر حنفي ذو الخامسة والخمسين عامًا يستمع بإنصات واستمتاع رفقة كوب الشاي الخاص به مع إحدى سجائره الملفوفة بتبغ خاص أحضره له أحد معارفه من محافظة الشرقية، كان يستمتع عم صابر بلف سجائره بنفسه ويحتفظ بسجائره الملفوفة بعناية داخل علبة من الصفيح المقوى، كان يستمع إلى إحدى أغاني السيدة أم كلثوم التي لا يستمع لأحد غيرها وهي تشدو بصوتها الذي لا يتكرر " ياللي ظلمتوا الحب وقولتوا وعِدتوا عليه وقولتوا عليه مش عارف أيه، ده العيب فيكوا يا فحبايبكوا أما الحب، أما الحب يا عيني عليه يا عيني عليه " كان يستمع للكلمات التي تشدوها السيدة أم كلثوم بحب وحنين لا يفهم إن كان للحب نفسه أم لزوجته المُتوفاة قبل بضع سنين أم لفترة شبابه أم للزمن الغابر ذاته، لا يعرف ولا يود أن يعرف على وجه التحديد ما الذي يحن إليه بالضبط، هو يفتقد هذا الشعور الذي يتقد في قلبه عندما يستعيد الذكريات حتى لو فقد أصحاب هذه الذكريات للأبد، هو لم يجزع قط بعد وفاة زوجته التي عانت كثيرًا بسبب ضعف قلبها، كان يعتقد أنها تعيش في مكان أكثر راحة وهدوءًا ورحمة من هذا العالم الذي أصبح قاسيًا غليظًا بل ومقيتًا أيضًا، كان ينظر بين الحين والآخر إلى هذه الغسالات الكهربائية التي تقوم بغسل وعصر الملابس لكل العاملين بالموقع البترولي بوادي جهنم، كانت الغسالات هي عالمه، فهي تقسو على الملابس وتعصرها بلا رحمة كما تفعل الدنيا ببعض الناس ممن كُتب عليهم الشقاء وقلة الراحة مثله تمامًا، كان يجلس خارج

غرفة الغسيل على أحد المقاعد واضعًا قدمًا على الأخرى غارقًا في ذكرياته وتأملاته وصوت السيدة أم كلثوم العذب الذي يساعدك على النوم بكل سهولة حتى سمع صوتًا غريبًا بجانب غرفة الغسيل، كان الصوت كفحيح الثعبان مع طرقعة خفيفة كتكسير لأوراق الشجر والأغصان الصغيرة، اقترب بحذر شديد في اتجاه هذا الصوت حتى وصل إلى جانب الغرفة الذي كان آخره يقع مصدر الصوت والذي كان صوت أفعى خضراء مزركشة بمربعات صغيرة من اللونين الأبيض والأسود، كانت أفعى كبيرة نسبيًا فطولها يبدو أكبر من الثلاثة أمتار على أغلب ظنه، فزع منها وتقهقر للخلف في خوف كبير بينما أصدرت هي فحيحًا مخيفًا وكأنها تتهيأ للهجوم في حال اقترب منها، لكنه استجمع قوة صوته وأخذ ينادي على بعض زملائه من عمال النظافة والعاملين في المطبخ القريب من غرفة الغسيل والذين أتى بعضهم على الفور وسألوه عما أفزعه وتسبب في استدعائه لهم لكنه استدار ليشير لهم تجاه هذه الأفعى الكبيرة لكنها لم تعد هناك بعد الآن، لقد فرت بعيدًا جدًا حيث عبرت السور الحديدي الذي يحيط بمعسكر الإقامة وخرجت لتصبح خارج الموقع؛ صدق بعض الناس رواية عم صابر بخصوص هذه الأفعى الخضراء الغريبة والتي لم يشاهد مثلها أبدًا الكثير منهم، بينما اعتقد بعضهم أن عم صابر خُيل إليه ما رأه وأخبرهم به وجعل بعضهم يبحث عنها لقتلها لكنهم لم يجدوا شيئًا في ذلك المكان الذي أشار إليه عم صابر أو بالقرب منه.

ذهب البعض للسخرية مما حكاه لهم الرجل العجوز وأخذوا يتضاحكون حول تلك الأفعى الخضراء التي لم تكن شائعة الظهور بمواقع البترول، إنما كانت شائعة بكثرة في الغابات الكثيفة كغابات نهر الأمازون في بلدان أمريكا الجنوبية، حتى أن بعض زملائه من المتحذلقين أسموه عم صابر الأخضر، أو صاحب الأفعى الخضراء.

أعطى الحاج بهاء توجيهاته من خلال مهندس السلامة الخاص بالبريمة طلعت حمدي بعدم السير ليلا بعيدًا عن البريمة لأداء أي عمل لأي عامل وحيدًا حتى إذا حدث له أي طارئٍ يكون هناك بجانبه من يساعده من زملائه وكان ذلك القرار صائبًا ويحمي الجميع، خلال سويعات قليلة، بعد ما حدث لمصطفى زيدان، كان يشعر أنه بخير وعاد إلى غرفته ونام حتى الصباح واستيقظ في موعده وتناول إفطاره وذهب مع زملائه لمناوبتهم التي تبدأ في الثانية عشرة ظهرًا، اطمأن عليه الحاج بهاء والريس محمود في اليوم التالي قبل بدء المناوبة، وقد أخبرهما أنه بخير، كانت أمور الحفر بخير وكانت الأعمال تسير طبقًا للجدول الزمني الموضوع من قبل إدارة الحفر للشركة المنتجة، كان مؤمن ووليد ومصطفى ينفذون ما يطلبه منهم الريس محمود أو الحاج بهاء وأثناء الراحة أو قلة ضغط العمل كانوا يجلسون سويًا فيتحدثون ويمزحون ويحكي كل منهم عن حاله وما يفعله بإجازته عندما يعود كل منهم إلى بيته في قريته أو مدينته بين أهله وذويه، كان مؤمن ووليد يتحدثان كثيرًا عن أطفالهما الذين يحبانهم كثيرًا ويتوقان إليهم

كثيرًا، وعن قضاء وقتيهما أثناء الإجازة في المرح معهم ومداعبتهم، وكذلك في النوم كثيرًا خاصة في الأيام الأولى للإجازة، والسهر مع الأصدقاء على المقاهي ولعب النرد أو مشاهدة مباريات الدوري لأندية أوروبا الشهيرة، كان مصطفى يسمع لهما ويضحك لأحاديثهما لكنه لم يكن يحكي لهما عن حياته أو حبه الضائع وهروبه من كل ذلك من خلال العمل معهما على البريمة كعامل حفر، حاول صديقاه استمالته لدفعه إلى الحديث عن حياته لعلهما يخففان عنه ما يشعران أنه يهرب منه ويتحاشى الحديث عنه ويتركه لنفسه فيؤرقه ويقد مضجعه ليلا؛ في أحد هذه الأوقات قليلة ضغط العمل حيث كانوا يجلسون ويناظرون بأعينهم العمل على البريمة من بعيد بينما يتناولون بعض أكواب الشاي والقهوة في هذا البرد، قال مؤمن لصديقه مصطفى ممازحًا:

- ألا زلت لا تثق بنا يا مصطفى؟!

تعجب مصطفى من سؤال زميله وقال بعد أن فهم ما يرمي إليه صاحبه:

- أعرف أنكما تشعران بشيء من ذلك، كما أعرف أننا تعارفنا قبل أسبوع فقط لكنه كان كافيًا كي أعرفكما وأصاحبكما دون غيركما من الزملاء، أنا فقط أشعر أنني قد بدأت حياة جديدة هنا، ولا أحب الحديث حول الماضي والذكريات، ليس لكونها بائسة أو مؤلمة بل لأنها تخص أهل الماضي بكل ما فيها من حزن أو فرح، أما عن الثقة فتأكدا أنني أثق بكما كثيرًا.

- لا بد أنك عشت قصة حب فاشلة يا صاحبي!!

- ما الذي يجعلك متأكدًا إذن؟!

- وحده الحب ما يترك هذا الأثر في القلب والوجه، أنا عشت ذلك كثيرًا.

- كثيرًا؟!

ضحك مؤمن من استغراب مصطفى لكلام وليد الذي عاش لوعة الحب والفقد كثيرًا فقال لمصطفى الذي كان محتارًا:

- إن وليدًا لا يحب أن يعيش دون حب، عندما ينجذب لإحداهن يتحدث إليها ويتعرف بها ويرتبط بها بكل جوارحه، حتى إذا تمت خطبتها أو غابت لأي سبب فإنه يعيد الكَرَة مرة أخرى.

نظر مصطفى إلى وليد الذي لم يُعلق على كلام مؤمن عنه وسأله مستنكرًا:

- وهل تعتقد أن ذلك هو الحب يا وليد؟!

- لا أعرف، اعتبرته كذلك حتى جهزت شقتي للزواج وكنت مستعدًا لحياة زوجية وأسرية، كررت الأمر مرة أخرى وكانت مرة أخيرة حيث انجذبت هذه المرة إلى فتاة وتزوجت بها خلال ستة أشهر فقط من تعارفنا.

- لا أعتقد أنك قد أحببتَ يومًا يا وليد.

ابتسم وليد ولم يعارض كلام مصطفى، إنما قال:

- هذا ما تأكدت منه بعد زواجي بسنتين، فقد أصبحت زوجتي هي حبيبتي الأولى والأخيرة والوحيدة، إننا الرجال نحب من يحببننا، يؤنسن وحدتنا،

يشعرن بقيمة وجودنا في حياتهن، لا من ننجذب إليهن بسبب عنفوان شبابنا بلا عقل أو ضمير.

صُدم مؤمن من كلام وليد الذي يعرفه قبل ثلاث سنوات كاملة ولم يكن يعلم أنه وصل لهذه الدرجة من الحكمة والمنطق، فقال بفخر:

- مرحى يا وليد، لقد أصبحتَ حكيمًا يا رجل.

ضحك مصطفى من كلام مؤمن ثم قال بمزيد من العقل والحكمة:

- لقد قادته التجربة إلى الحكمة، لكن أخشى أن يكون قد دهس بعض الورود أثناء سيره نحو الحكمة.

نظر وليد إلى مصطفى ثم إلى مؤمن الذي فهم كما فهم وليد مقصد مصطفى، لكن رده لم يتأخر حيث قال:

- لا يمكنني إنكار أخطائي في هذه المرحلة من حياتي لكنني وضعت لنفسي بعض الخطوط الحمراء ولم أعتدِ يومًا يا رفيقَيَ.

- من الجيد أن يستطيع الشخص وضع حدًا فاصلا بين الأخطاء وبعضها، حتى لو كانت حدودًا وهمية أو اعتبارية وضعها مجتمع الشباب أو المجتمع بأكمله أو حتى العرف السائد، من الجيد عمومًا أن يترك الإنسان بعض الفُرجات أو الأبواب المفتوحة للعودة يومًا ما إلى الطريق الصحيح.

- كان ذلك بالضبط هو ما فكرت به يا مصطفى، كنت أحلم بالعودة وأتوق إليها وكما يقولون إذا أردت شيئًا ما اسعَ في طريقه لعله يسعى إليك أيضًا.

.....

جاء المهندس طاهر رمضان مدير إدارة الصيانة بالموقع إلى المهندس ناصر الديب مدير الحقل يخبره أن العمل في بناء صهريج الإنتاج أصبح بطيئًا خلال اليومين الماضيين وذلك أن أحد اللحامَيْن الذَين يعملان فيه قد تعرض لوعكة صحية والآن لا يعمل إلا اللحام الثاني وحيدًا، شعر مدير الحقل المهندس ناصر بالضيق والانزعاج معًا ثم قال:

- إن كان مريضًا للغاية فعليه أن يغادر الموقع للاستشفاء ويأتي أحدٌ غيره ليستكمل عمله.

- هذا ما طلبته من اللحام الآخر لكنه أخبرني أن زميله قد يعود غدًا للعمل من جديد حيث أن حالته تتحسن.

- أيهما هو المريض، الشاب أم العجوز؟

- إنه الشاب، عادل، وهو لحام جيد للغاية وكان يعمل بجدٍ كبير لكنه تعرض لوعكة صحية كما قد يتعرض أي أحدٍ غيره.

ترك المهندس ناصر حاسوبه الذي كان يطالع بعض البيانات الخاصة بالآبار عليه ثم اعتدل في جلسته وسأل المهندس طاهر:

- وممَ يشكو؟

سكت المهندس طاهر رمضان للحظات استبطأها المهندس ناصر الذي أردف في ضجر:

- ماذا هناك يا طاهر؟

- هذا العجوز عم علي يقول إنه تعرض لبعض المس هنا في الموقع، ولم يكن بخير منذ أخبره أنه رأى أفعوان أسود بشع المنظر بينما كان يتحدث في هاتفه النقال على مسافة غير بعيدة من صهريج الإنتاج.

قام المهندس ناصر من مقعده بعد أن شعر ببعض الفضول من ذلك الأمر وسأل:

- ما الذي حدث له بالضبط منذ رأه؟!

- يقول إنه كان يتخيله في كل مكان وكأنه سيلدغه، داخل الصهريج وفي دورة المياه وحتى أسفل سريره، فلم يكن ينام مرتاحًا بالليل فشعر بآلام في الرأس والعين وأصبح مرهقًا بدرجة كبيرة للغاية.

كان المهندس ناصر يشعر بالحيرة والغضب معًا مما يسمع فقال متسائلًا:

- ما كل هذه الأفاعي التي يدعي الجميع رؤيتها هذه الأيام، أفعى بيضاء وأخرى خضراء وأفعوان أسود فاقع بشع اللون، ثم لمَ لم يخبرني هذا الرجل- علي- عن مس زميله منذ حدث له ما حدث؟!

- لقد أخبرتك بما قاله لي هذا الصباح، ربما يعتقد أننا قد نسخر منه ومما يقول، أو لا نصدقه، وربما اعتقد أن زميله سيتحسن بسرعة ويعود لاستكمال عمله دون أن نعرف بمُصابه.

- ربما.

شعر المهندس طاهر أن المهندس ناصر سرح في بعض الأمور الأخرى فرأى أن يستأذنه ليتركه لأعماله وقبل أن يفعل قال ناصر:

- إن كان هذا اللحام- عادل- مستيقظًا فأرسل إليه ليأتيَني لأقوم برُقيته لعله يتحسن.

تعجب المهندس طاهر من هذا الطلب لكن المهندس ناصر أردف قائلًا:

- أنا أقرأ الكثير عن أمور المس والجن وغيرها منذ عدة سنوات، وأشعر أن هذه الأفاعي الثلاث ليست إلا بعض الجن ممن يتجسد في صورهم، وليست أفاعٍ حقيقية، أو أن هناك أمرًا آخر ولا أعتقد حدوثه في هذا الوادي القفر.

نظر إليه المهندس طاهر بتعجب أكبر من ذي قبل دون أن يفهم شيئًا مما يقوله ناصر الذي انتظر منه أن يقول شيئًا ما لكنه لم يفعل فأردفَ ثانية:

- حسنًا يا طاهر، يمكنك الذهاب الآن لكن أرسل في طلب هذا اللحّام، سأنتظره هنا.

****

الفصل الخامـس

الشيـــخ غُـراب

كان الشيخ غراب بمثابة القاضي الوحيد للصحراء الغربية، فقد استطاع أن يجمع كل القبائل الغربية تحت رايته سواء باستخدام القوة الناعمة أو الغاشمة فقد امتلك كليهما منذ مدة ليست بالقصيرة، فقد حكم تلك الصحراء الغربية طوال ثلاثين عامًا بلا نزاع قوٍ يذكر تقريبًا، بل وقسمها إداريًا بين أبنائه الخمسة عندما كبرت شوكتهم وأصبحوا أهلا للمسئولية التي احتملها أبوهم وحده طيلة ثلاثين عامًا، كان الشيخ غراب يبلغ من العمر خمسة وستين عامًا، قضاها بين دروب وأزقة الصحاري، عاش بين الوديان القفرة والكثبان الواهية والهضاب والكهوف والزواحف والأفاعي والعقارب حتى صحبهم وصاحبوه وألفهم وألفوه، كان يمشي عشرات الكيلو مترات على قدميه يبحث عن المرعى والماء طوال ثلاثين عامًا من حياته، حتى عرف الطريق نحو السلطة والثروة من خلال التعامل مع شركات البترول التي قادتها الخرائط الجيولوجية والمسح الجيو فيزيقي إلى تلك المناطق الصحراوية القريبة من حدود الشيخ غراب الذي منحهم الحماية والحراسة لأفرادهم ومعداتهم مقابل الأموال وتوفير عمال اليومية وكذلك عمال المعدات الثقيلة كالأوناش واللوادر وسيارات النقل الثقيل وغيرها،

حتى أصبح مقاولًا كبيرًا بفضل توسع الأعمال وإقبال الشركات للعمل في هذه المواقع البترولية، فكان يأخذ منها الأموال نظير حمايتها وتقديم بعض الخدمات لها، كبر العمل واتسعت مساحته وأصبحت الصحاري ملئ بالبراريم والشركات والأفراد ومعسكرات الإقامة فازدحمت بالعمل نهارًا وليلا، فأضاءت ظلام الليل في الصحاري وأنعشت الاكتشافات البترولية خزينة الدولة بالعملات الصعبة، كانت تلك الاكتشافات فتحًا كبيرًا للشيخ غراب الذي حرص على توظيف العديد من أهل بدو تلك المناطق للعمل في أعمال الحراسة وقيادة المعدات الثقيلة التي احتاجتها أعمال الحفر والتنقيب في تلك المواقع، فأصبح سيدًا في قومه غنيًا بهم وبتلك الأموال التي اكتسبها وغنمها بعد هذه الفتوح المذهلة وسط الصحاري القافرة.

كان الشيخ غراب معروفًا لدى جميع المسئولين الكبار في الدولة المصرية بفضل ما قدمه لخدمة هذه الصناعة، وكذلك ما قدمه من خدمات في مجال الأمن حيث كان يساعد رجال الأمن من خلال إمدادهم بقصاصي الأثر من البدو كي يتمكنوا من مهاجمة المتطرفين والإرهابيين وكذلك مهربي المخدرات والأسلحة وتتبعهم للقضاء عليهم وحماية الوطن من أخطارهم.

قبل بضع سنوات فقط قسّم الشيخ نافع غراب كافة أعماله بين أبنائه وقرر إيثار الراحة مع زوجته الرابعة التي منحته طفلا ولدًا قبل ثلاث سنوات، فآثر تربيته بنفسه والتفرغ له وترك إدارة كل أعماله لأبنائه الشباب، وقد

صار نصيب ابنه الأصغر حامد هو إدارة كافة أعمال وادي جهنم، رغم ذلك كان أبناؤه يرجعون إليه في بعض الأمور التي لم يختبروها قبل ذلك فكان يمنحهم من خبراته وحكمته ما يمكنهم من حل هذه الأمور والمشكلات.

تغير كل شيء قبل سنتين تقريبًا عندما أبلغ حامد رجاله أن إدارة وادي جهنم ستعود إلى أبيه الشيخ نافع من جديد وذلك بسبب وجود مشروع تجاري بين الدولة المصرية وإحدى البلدان الخليجية الشقيقة وذلك بتخصيص مساحة من أرض الوادي القريبة من موقع شركة البترول لتجهيزها كمحمية نباتات وحيوانات وطيور نادرة وكذلك كأرض للصيد وسباقات الخيول والجِمال والسيارات السريعة وقد وقع الاختيار على شركات الشيخ نافع غراب لتنفيذ هذا المشروع الضخم والذي استوجب عودة الشيخ نافع من إجازته التي اختارها بنفسه ليصبح مسئولًا عن تنفيذه وحمايته من أي تهديد محتمل بسبب كثرة الأعمال والشركات التي تعمل بوادي جهنم أو حوله، كانت الأموال كثيرة وحاضرة بالفعل من أجل سرعة القيام بتنفيذ المشروع، فخلال سبعة شهور فقط بنيت حلقات السباق والمراعي والمحميات والاستراحات ومهابط الطائرات وأصبح لوادي جهنم شكلًا آخر جعله يتوهج ليلًا بالاحتفالات والحفلات التي حضرها كبار المسئولين ونجوم المجتمع وأعيان مجتمع وادي جهنم بجوار المستثمرين العرب الذين حرصوا على إتمام المشروع بسرعة وإتقان معًا.

قبل بدء تنفيذ المشروع بشهرٍ تقريبًا قامت قوات الأمن بتمشيط المنطقة المحددة للمشروع وكذلك ما حولها للتأكد من خلوها من القنابل والعبوات الناسفة التي كانت قد زرعت منذ الحرب العالمية الثانية وذلك للتأكد من ملاءمة الموقع للمشروع قبل الشروع في البناء والتنفيذ كان عمال شركة البترول يرونهم يقومون بتمشيط المنطقة فيقدمون لهم الطعام والشراب ويسألونهم عما يقومون به وسبب قيامهم به، فلا يخبرونهم عن السبب لجهلهم به، وخلال شهرين اتضحت الأمور فضجت المنطقة بالحياة حيث ازدحم الطريق المؤدي إلى وادي جهنم بسيارات نقل المياه العذبة ولوادر الحفر وعربات نقل نواتج الحفر، وتم بناء مدينة كاملة في الوادي احتوت على مناطق مختلفة لحياة النباتات النادرة وكذلك الحيوانات والطيور، ومدينة ترفيهية لأصحاب المشروع لإقامة سباقات الخيول والإبل وسيارات سباقات السرعة، بين غمضة عين وانتباهتها وجد عمال شركة البترول أنفسهم بالقرب من هذه المدينة يسمعون ضجيج هذه السباقات مرة أو مرتين كل شهر، فكانت تُسمع أصوات الطائرات العمودية في هذه الأوقات، كانت تحمل أصحاب السمو والأموال كذلك، كما تحمل صنوف المأكل والمشرب اللازمة لهذه السهرات الصاخبة في وادي جهنم.

.....

كان موسى صبيح يعمل خفيرًا لدى الشيخ نافع غراب منذ ثلاثين عامًا لكنه لم يسبق له اختبار هذه الأمور التي تحدث في الوادي هذه الأيام، كان يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، كان لا ينام إلا نهارًا، فقط من أربع إلى خمس ساعات ثم يقوم إلى عمله من بعد العصر وحتى ظهر اليوم التالي، كان يعمل ليلا دون خوف، فكان يطوف حول البريمة ومعسكر الإقامة وكذلك بالقرب من أسوار المحمية التي لم يكن يحب أجواءها، كان يقول دائمًا أنها لا تروق أهل الوادي الأصليين، كان يتحدث عن ذلك مع مديري الحقل والمهندسين والعمال، وفي أحد الأيام وقبل غروب الشمس بدقائق التقى مع بعض مهندسي الحقل وكانوا المهندس ناصر، والمهندس طاهر والمهندس مأمون، فقد وجدوه يمشي وحيدًا كعادته، فعرض عليه المهندس ناصر توصيله بسيارتهم وكان ذاهبًا تجاه البريمة ليتأكد من سلامة كافة الأمور، فوافق رغم حبه للسير على قدميه دائمًا، جلس بالخلف بجانب المهندس مأمون الذي كان يخشى أحاديثه ويتحاشى الكلام معه، كان يعتبره دجالا ربما أو رجل غريب الأطوار، وعندما سلم عليه موسى اكتفى بالابتسام له دون كلام، أراد المهندس طاهر أن يمنحه الفرصة لمعرفة رأيه حول تلك الأفاعي الغريبة التي يتحدث عنها العمال هذه الأيام، فقال له طاهر:

- كثرت الشائعات هذه الأيام يا شيخ موسى وبدأ عمال شركات الخدمات لدينا يشعرون بالخوف، ويخشون المبيت في الوادي.

قال موسى في أسى وغضب دفين:

- أهل الوادي لا يحبون ما يحدث هناك.

أشار موسى تجاه أرض المشروع الخاص بعرب الخليج.

- وماذا يحدث هناك يا شيخ موسى؟!

- هذه الاحتفالات وأجواء الصخب والمعازف والرقص والسباقات.

- لكنها لا تحدث إلا كل شهر أو إثنين، وربما تحدث مرة واحدة فقط يا شيخ.

- لكنها لا.....

على غير عادته سأل مأمون في تعجب:

- ومَن تقصد بأهل الوادي يا شيخ موسى؟ نحن لا نهتم بما يحدث هناك، وربما كان هذا المشروع يُدِر أموالًا للدولة كما تعرف يا شيخ موسى.

- لكنكم... لستم أنتم مَن سكن هنا منذ البداية يا باشمهندس.

- إذن فمن تقصد يا شيخ؟!

- أقصد أقوامًا وأممًا من الأمم الأخرى.

كان المهندس ناصر يتابع حديثهم في صمت وإنصات كذلك حتى هذه اللحظة التي تحدث فيها موسى عن الأمم الأخرى، فقال في اهتمام:

- يبدو أنك تعرفهم جيدًا إذن يا شيخ موسى، لكن ما علاقتك بهم؟!

- إنها معرفة قديمة يا باشمهندس ناصر وأعتقد أنك تعرف ذلك.

أشار موسى بذلك إلى اهتمام ناصر بهذه الأمور ومحاولته معرفة أسلوب حياتهم وتأثيرهم على حيوات الناس كذلك، لم يستغرب ناصر من حديث موسى فهو دائم التحدث عما يقوم به وقد يسمع موسى أو غيره عن الأمر، ضحك ناصر من كلمات موسى ساخرًا لكنه عاد ليسأله:

- إذن فهم من يرسلون تلك الأفاعي الملونة؟

لمعت عينا الشيخ موسى وبرزتا قليلا للخارج ثم قال بنبرة مرتابة خائفة:

- ربما.

- ولمَ؟

- لا أعرف يقينًا لكنني أشعر بغضبهم هذه الأيام.

ابتسم المهندس ناصر وبادر الشيخ موسى قائلًا ببعض الحماس:

- لمَ لا تكون وسيطًا بيني وبينهم إذن؟ أريد أن أفهم ما يغضبهم.

كان مأمون وطاهر يراقبان حديثهما المخيف ذلك في صدمة واندهاش كبير مرعب ونظرا بصمتٍ تجاه ناصر الذي بدا متحديًا وهو يطلب ذلك من موسى الذي احمر وجهه وكاد يتصبب عرقا رغم برودة الطقس وقال في خوف واضح:

- لقد فقدتَ رشدك يا باشمهندس، ما الذي تطلب؟ وممن تطلب؟ أنزلوني هنا الآن.

أوقف طاهر السيارة على الفور وأنزله منها ثم دار بها للوراء عائدًا إلى معسكر الإقامة دون أن ينبس ببنت شفة وكذلك الحال بالنسبة إلى

مأمون الذي تملكه الخوف أكثر وأكثر من مديره المهندس ناصر الذي توارت عيناه خلف عدسات سوداء اعتاد أن يضعها أثناء تواجده بالحقل تفاديًا للغبار والأتربة والعواصف، لم يعقب ناصر على ما حدث بينه وبين موسى للتو بينما كان يناظر مرآة السيارة الداخلية ليطالع وجهي مأمون وطاهر بين الحين والآخر ليرى أثر الموقف على وجهيهما الذَين احمرا منذ نزل موسى من السيارة وظلا كذلك حتى وصلوا إلى معسكر الإقامة.

.....

بعد مرور أسبوع على مصطفى زيدان تغير نظام عمله مع فريق مناوبته ليتحول إلى العمل من الثانية عشرة صباحًا إلى الثانية عشرة ظهرًا فكان عليه أن ينام منذ الظهيرة وحتى العاشرة أو الحادية عشرة مساءً قبل أن ينهض ليتناول عشاءه ويتجه إلى البريمة لمتابعة مناوبته مع زملائه وليد ومؤمن، كانوا يذهبون أحيانًا إلى معسكر الشركة المنتجة لمشاهدة بعض المباريات في التاسعة أو العاشرة مساءً حتى يحين موعد مناوبتهم فيذهبون لعملهم على مضض وكان مؤمن ومصطفى مدمنَين على مشاهدة مباريات كرة القدم الأوروبية فكان أحدهما يشجع فريق ليفربول الإنجليزي وكان الآخر يشجع ريال مدريد الإسباني وكانا يختلفان كثيرًا في آرائهما وتحليلاتهما الكروية بينما كان وليد يضحك من مناقشاتهما وخلافاتهما التي يصحبها المزاح، وهناك تعرفوا على عادل عيد اللحّام ومساعده أسامة الذَين أحبهما مؤمن كثيرًا كونهما شاركاه في تشجيع فريق ليفربول

الإنجليزي، كانوا يجتمعون معًا كل ليلة تقريبًا لمشاهدة المباريات إن وجدت أو لعب الورق والدومينو وتناول الشاي كذلك، وكانوا دائمًا ما يتحدثون عن معاناتهم في وادي جهنم، وتلك الأمور الغريبة التي تحدث معهم أو مع غيرهم في هذا الموقع المليء بكل شيء سواء بشر أو حيوانات أو زواحف أو... أشباح.

استمر الحال كذلك طوال ثلاث ليالٍ، وفي الليلة الرابعة وعندما اقتربت الساعة من الثانية عشرة تركهما عمال الحفر مصطفى ومؤمن ووليد ليذهبوا إلى مناوبتهم الليلية على البريمة، كان الجو باردًا تكاد تصل حرارته أو بالأحرى برودته إلى صفر مئوية في هذا الوقت من الليل، كان العمل على البريمة يسير جيدًا حيث كانت البريمة تستكمل الحفر ولم يكن هناك حاجة لهم، كانت الساعة تشير إلى الثانية والربع صباحًا عندما جلسوا في إحدى الغرف يمزحون ويتناولون الشاي الساخن لعله يدفئهم قليلًا في هذا البرد القارس عندما قال مصطفى بنوع من التعب والمرارة:

- لا أعتقد أنني يمكنني تحمل مثل هذه الحياة طويلا، إنها حياة صعبة للغاية، ففي الوقت الذي ينبغي للإنسان أن ينام فيه ويندس بين الأغطية طلبًا للدفء، فإننا يجب أن نعمل ونتعرض للبرودة والأمطار.

- حمدًا لله أننا لا نقضي هذا الوقت في الخارج الآن يا رجل، ربما غدًا أو بعد غدٍ كان علينا أن نكون على البريمة لمساعدة زملائنا في الطلوع بدقاق الحفر من البئر وربما قضينا طيلة الليل نفعل ذلك.

- يا إلهي، ربما عندها سأتعرض لنزلة برد شديدة تلزمني الفراش لمدة أسبوع على الأقل.

ضحك مؤمن ووليد كثيرًا قبل أن يقول مؤمن:

- نعم هي حياة صعبة لا يمكنني قول غير ذلك، لكنني أحبها كثيرًا أو ربما تعودت عليها أو أريد أن أصل فيها لوضع أفضل من خلال الترقي الوظيفي.

- حتى لو ترقيت فإنك لا يمكنك ترك هذه الحياة، أعتقد أن حياة الصحاري كحيوان ضارٍ ينهش في جسد من يعيشونها لفترة طويلة.

- ربما لم يكن عليك سلوك هذا الدرب إذن يا زيزو، فأنت كمهندس بترول لا يمكنك الهروب من الصحاري ... والأشباح كذلك.

ضحك مؤمن من كلمات وليد الذي أراد أن يُخوف بها مصطفى مازحًا قبل أن يرد عليه مصطفى:

- ربما معك حق يا وليد، لكن ليس كل مهندسي البترول يعملون في الصحاري، فبعضهم يعمل في مكاتب مكيفة طوال حياتهم فلا يذهبون إلى الصحاري إلا نادرًا، كما أن بعضهم يعمل على منصات بحرية في البحار والخلجان وهذا ما كنت أتمنى أن أعمل به دومًا لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

نظر مؤمن إلى صاحبه وقد شعر ببعض معاناته وآلامه لا بسبب قسوة حياتهم في وادي جهنم بل لأنه فطن إلى أن مصطفى جاء إليهم فارًا من حياة لم تسر كما أراد هو، حياة لم تكتمل، هدف لم يُكتب له تحقيقه أو

حب لم ينمُ ويستمر ويستقر إلى حياة أسرية جميلة هانئة، فقال لصاحبه وقد ربت على كتفه بحبٍ:

- هذا صحيح، فليس كل ما يتمناه المرء يدركه، لكن بعض ما يتمناه يدركه، ربما فاتك شيء وبقيت لك أشياءٌ يا صاحبي، ربما كانت سعادتك فيما فاتك امتلاكه أو تحقيقه، وربما ثمة هدف أكبر وحلم أجمل ما زال يلوح في الأفق مقدرٌ لك تحقيقه.

ابتسم له مصطفى الذي خفق قلبه بحب وأمل وانتظار ولم يعقب بشيء بل سرح قليلًا قبل أن يدخل عليهم الريس محمود قائلًا بلهجة آمرة:

- فليذهب اثنان منكم إلى الشعلة لمراقبتها وإذا كان هناك ما يريب فليتصل بي أحدهما.

- حسنًا، سنذهب جميعًا.

- لا بأس، هيا الآن.

ذهب الثلاثة إلى الشعلة بعد أن أخرج كل منهم كشافه الكهربائي الصغير الذي يعمل ببطارية كهربية صغيرة ساروا على أضوائها الضعيفة نسبيًا، وعندما وصلوا إلى هناك وجهوها تجاه الشعلة فلم يجدوا ما يريب فمكثوا هناك يتسامرون ويضحكون ويمزحون طوال خمس عشرة دقيقة حتى هالهم ما رأوا في هذا الوقت المتأخر من الليل، فقد رأوا أربع سيارات ذات الدفع الرباعي المكشوفة تتحرك ببطء تجاه المحمية على بعد مائة متر تقريبًا، طلب مؤمن من صاحبيه السكوت والانخفاض حتى لا ينتبه لهم أحد، فقد

اعتقد أن السيارة الأولى توقفت فجأة لتتبين عدم وجود أحد في محيط المدخل الخلفي للمحمية والذي كان سورًا مرتفعًا من الأسلاك الشائكة كما يبدو لهم أثناء فترات النهار من فوق برج البريمة.

اختفت السيارات الأربع في الليل المظلم عندما ابتعدت عنهم واقتربت أكثر من سور المحمية، نظر ثلاثتهم إلى بعضهم البعض دون أن يتحدثوا بينما يتساءل كل منهم، هل ما يحدث أمر عادٍ؟ هل يتم تهريب شيء ما إلى المحمية أو منها؟ هل رأوا حقًا هذه السيارات أم أنها مجرد خيالات في ليلة ظلماء باردة أم أنها وساوس الأشباح؟! تلك الأشباح التي سبق وعبثت مع مصطفى زيدان قبل بضع ليال؛ لم يتحدثوا إلى بعضهم البعض لكن ظلوا يتساءلون في شك وارتباك يملأ أنفسهم بينما يراقبون ما حدث في صمت... وخوف.

****

الفصل السادس

الراقص مع الأشباح

كان المهندس ناصر الديب مثالًا للرجل الأنيق الذي يحب أن يبقى شابًا يافعًا طوال حياته، فهو قد بلغ السادسة والأربعين من عمره قبل شهرين تقريبًا لكنه لا زال يرتدي تلك الأزياء التي توحي للآخرين أنه ما زال في الثلاثين من عمره رغم ذلك الشعر الأبيض الذي هاجم رأسه في السنوات الأخيرة، كان رجلًا طيبًا واضحًا رغم عصبيته الزائدة التي ينفر منها بعض الناس، لكنه سرعان ما تتضح حقيقته كرجل طيب لا يحمل ضغينة لأي أحد لكنه مع ذلك لا يتخلى عن شخصيته القوية في نظر الكثيرين والتي ساعدت عصبيته المبالغ فيها في بعض الأحيان من ترسيخ تلك الشخصية، لكن هذه الشخصية ورغم ذكائها وحب الكثيرين لها لم تمكنه من إرساء علاقة ثابتة مترابطة مع زوجته التي لم يعجبها كونه رجلًا متشددًا متسيدًا لكل ما يحدث في بيته ومع أسرته، كان يتصرف كرجل مسئول محاسب أمام الله وأمام الناس عن كل ما يحدث في بيته وفي عمله طالما كان صاحب اليد العليا فيه كونه رجل في بيته ومسئول عنه ومدير في عمله تمر كل صغيرة وكبيرة بين يديه، تلك الشخصية القاسية على نفسها قبل أن تكون قاسية

على من حولها في أغلب الأحيان جعلته دائم المشاكل مع زوجته وأثرت على أبنائه كذلك، كان يعاني كثيرًا بسبب ذلك وكثيرًا ما كان ينخفض ضغطه فيتهاوى ويمرض دون أن يؤثر ذلك في تغيير أو ربما تعديل بعض سمات هذه الشخصية العنيدة، كان دائمًا ما يقول أنه عاش كذلك كما وُلد كذلك وسيموت كذلك، كان يعرف أنه عندما تتخطى الثلاثين من عمرك فإن التغيير أو تعديل مسار الشخصية يصبح أصعب وأعقد لدرجة الاستحالة، فلا يمكنك أن تجعل البخيل كريمًا ولا العنيد لينًا مرنًا ولا الخبيث طيبًا ولا الهماز اللماز أمينًا، تلك هي الحياة، أصلها الاختلاف والتعدد والامتزاج كذلك، فلا يمكنك خلق مجتمع للفضلاء وآخر للسفهاء، وإن فعلت فلا يمكنك ضمان أن يبقى الفضلاء أو السفهاء كذلك للأبد، فالحياة وإن كان السائد فيها صعوبة أو تعقيد التغيير فليس معنى ذلك عدم احتمال حدوثه كذلك، فالمتغيرات أو مسببات التغيير تضمن حدوثه ولو لبعض الناس وليس جميعهم.

كان هذا هو مفهوم الحياة لدى المهندس كامل الديب الذي عانى كثيرًا بسبب نفسه وبسبب بعض الناس ممن لا يفقهون الحياة كما فقهها، ربما كان ذلك سببًا لمعرفته أو اهتمامه وقراءاته في أمور الجن والعفاريت خاصة مع خبرته الكبيرة في العمل في الصحاري والبيادي القفراء وتجاربه مع بعض الأمور الغريبة التي حدثت معه أثناء عمله على الآبار وفي محطات الإنتاج بلا سبب علمي أو منطقي، تعلمَ الرقية الشرعية بآيات القرآن الكريم،

وعالج بعض المسحورين أو المسوسين بهمزات الجن والشياطين، كان دائمًا ما يخبر زملاءه ومرءوسيه من المهندسين أنهم لا يعرفون ما يعرف ولم يختبروا ما اختبره من مواقف مع بعض الشيوخ ومع بعض أصدقائه وراغبي العلاج منه، كان يخبرهم أنه اكتشف وجود بعض الناس ممن يمكنهم رؤية ما يحدث في عالم الجن، بل ويستخدمهم في دعوتهم للإسلام والتحدث إليهم بل وتكوين الجيوش الإسلامية من مسلمي الجن لمحاربة مشركيهم وكفارهم، عندما كان الاندهاش يملأ وجوه زملائه من المهندسين ويسألونه بمزاح عن بعض ما يخبرهم به، كان ينزعج من جهلهم ونظرتهم للأمور بسطحية واستهزاء أحيانًا، كان يعرف أن أغلبهم يستغرب ويندهش مما يقوله بسبب علمهم أنه ليس متدينًا جيدًا أو مسلمًا كاملا، فيخبرهم أن قلبه مؤمن واثق الإيمان صحيح العقيدة وكم تمنى لو يصير كامل الإسلام سليم العبادة عظيم الخلق ولكنه إنسان في النهاية، والإنسان كائن ناقص مهما أدرك من علم وحضارة ووصل لدرجة عالية من السفسطة والجدل وعلم الكلام.

في هذه الليلة كان يفكر فيما حدث بينه وبين الشيخ موسى الذي أزعجه حديثه عن وساطته بينه وبين أهل الوادي من الجن، ابتسم حين ذكر ذلك، أخرج هاتفه النقال واتصل بشخصٍ ما وانتظر حتى سمع صوته على الطرف الآخر فقال له بصوت جاد:

- كيف حالك اليوم؟

- الحمدلله يا.... يا باشمهندس ناصر.

- كيف حال العمل؟

- الحمدلله، شاق كالعا...

- المهم أن تتحمل مسئوليته طالما ارتضيتَه.

- هذا ما عاهدتك عليه.

- هذه الأيام أسمع عن بعض الأمور الغريبة في الحقل، خروج بعض الأفاعي الغريبة، الحديث عن غضب الجن في الوادي و....

- ربما هذا ليس الوقت المناسب لفعل الأمر.

- هل معك أحد؟

- نعم.

- حسنًا اخرج لبعض الوقت واتركهم قليلًا فالأمر مهم للغاية.

- لكن....

- الآن.

بعد قليل بدأ المهندس ناصر يدعو لمحدثه على الهاتف ببعض الأدعية وأخذ يتلو بعض آي القرءان الكريم مثل" وهو القاهر فوق عباده"، " والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه"، وأنهى كلماته بقوله إنهم لا يعجزونك يا الله، إنهم لا يعجزونك يا رب، بينما كان محدثه ينتفض جسده وهو يستمع له مغمض العينين سارحًا في ملكوت ربه يحاول أن يبصر ما لا يستطيع ناصر إبصاره، فقد اعتقد أن دعاءه بإخلاص

وعقيدة راسخة لهذا الذي يحدثه سيساعده ليرى ويسمع ما يدور في وادي الجن، وسرعان ما قال متحدثه بصوت ضعيف مبحوح:

- أرى ثعابين كثيرة تخرج من تحت الأرض، ليست ثعابين فحسب بل عقارب وخنافس وزواحف غريبة وحيوانات لم أرَ مثلها من قبل.

- إنهم.... إنهم قبيلة من الجن ربما، من أين يخرجون؟

- يخرجون؟ نعم هناك بالقرب من محمية نباتات وحيوانات محاطة بسور شائك.

- المحمية؟! ماذا بداخلها أيضًا؟

- إنه كهف كبير، يحفر بداخله بعض الناس، يرتدون جلابيب وعمامات بيضاء.

- داخل المحمية أم خارجها؟ تأكد جيدًا.

- بل داخلها.

- حسنًا، هل يمكنك محادثة أحدهم؟

- لا، لا يرونَني.

- وماذا....؟

- لا يمكنني رؤية المزيد بعد الآن، لقد مُحيت تلك الصورة من أمام عيني تمامًا.

- حسنًا، يكفي هذا الآن، حاول أن تهدأ وتسترخي تمامًا، إنك تمتلك موهبة ومنحة عظيمة، لطالما تمنيتُ أن أمتلكها دون أن أعتمد على أحد للقيام بذلك.

- حسنًا يمكنني التنازل عنها لك، فأنا أشعر ببعض السوء حيال هذه الموهبة التي تتحدث عنها.

ضحك المهندس ناصر من كلمات محدثه الأخيرة ثم ودعه وأغلق المكالمة وعاد يفكر فيما حدث للتو ويجمعه مع ما يحدث مؤخرًا في وادي الجن لعله يستنبط ما وراء هذه الرسائل الغامضة والأحداث المتتابعة هنا وهناك.

.....

في الليلة التالية، وفي الساعة العاشرة والنصف مساءً أي قبل موعد مناوبتهم الليلية جلس وليد ومؤمن ومصطفى مع عادل وأسامة كعادتهم في الليالي الماضية، كانوا يلعبون الورق ويتحدثون ويمزحون وفي أثناء ذلك ذكر مؤمن أمر السيارات الأربع الذين رأوهم في أول ساعات صباح هذا اليوم وكانوا يتجهون إلى الجهة الخلفية للمحمية حتى اختفوا في جنح الظلام، بينما كان عادل يلعب الدومينو مع مصطفى انتبه إلى كلمات مؤمن التي قالها بلا اهتمام كبير، فقال عادل بصوت منخفض:

- ربما ذهب بعض البدو إلى هناك متسللين للاستمتاع ببعض الحفلات التي تقام هناك بين الحين والآخر.

- وربما احتاج شيوخ المحمية لبعض صنوف الكيف ووفرها لهم بعض البدو.

لم يكن صوت أسامة منخفضًا كصوت عادل الذي ضربه في أسفل بطنه بيده ليخفض صوته حين يتحدث بالهراء، انتبه أسامة لكلماته حينها وقال بهدوء:

- إنني أمزح يا رفاق، تعلمون ذلك بالطبع.

ابتسم له مصطفى ومؤمن ووليد الذي قال بشغف:

- لا أعرف إن كان يوافقني أحدكم ولكنني أشعر أن تلك المحمية تحتاج لزيارة ليلية قبل أن ننزل إجازتنا القادمة.

رد مصطفى بغضب على هذا الاقتراح المفاجيء:

- ماذا تقول يا وليد؟ هل جننت؟ لا يمكنك حتى التفكير في هذا الأمر، فالذهاب إلى هناك انتحار أو تنازل عن الحياة، ربما لدغك عقرب سام أو أفعى سوداء غاضبة، أو اعتقد بعض حراس المحمية أنك لص فأطلق عليك نيران سلاحه.

- أوَ ثمة حراس هناك؟!

سأل مؤمن متعجبًا فردَّ عليه عادل بنفس صوته الخفيض:

- لقد سمعتُ من الشيخ نادي الخفير أن ثمة حراس يُقدرون بخمسة رجال في المناوبة الواحدة أي كل إثنتي عشرة ساعة، في كل مناوبة إثنان من البدو بخلاف الخفيرين هنا موسى ونادي.

- لمَ عددهم كبير هكذا؟!

- لا بد أن الأمراء لا يحبون الإزعاج عندما يتواجدون هنا.

- لا أعلم لمَ يتواجد أحدهم أو كلهم في هذا الوقت البارد من العام.

- لا بد أنهم مغرمون بهذه الحياة البرية، فهم يحبون سباقات الخيل والإبل والسيارات القوية، وكذلك الصيد واستئناس الحيوانات المفترسة.

- يا لها من رفاهية.

- ربما تكون كذلك لكنها حياتهم وقد استثمروا عندنا لتحقيق هذه الرفاهية هنا كما حققوها هناك في بلادهم.

- لا أعرف كيف اختلفت أهدافنا وطموحاتنا وأساليب عيشنا كعرب بهذه السرعة، فبعضنا يبحث عن كمال الرفاهية، وبعضنا يبحث عن حياة آمنة ومقبولة إنسانيًا، بينما بعضنا فقط يبحث عن حياة أيًا كان شكلها، يبحث عن الفرار من الموت فقط.

- ما لك حولّت مسار الحديث لهذه الجدية يا مصطفى، هون على نفسك، هي في نهاية المطاف حياة أيًا كانت طريقة معيشتها، وفي النهاية يموت الجميع ولا يبقى إلا الله.

نظر وليد إليهم جميعًا في اندهاش وحيرة وكأنه يتساءل ماذا قلتُ كي يستحيل الأمر هكذا؟ ما خطبكم جميعًا، هل هي جلسة فلسفية نقدية أو ما شابه؟ ما أن سكتوا جميعًا حتى قال بنفس الشغف:

- أرى أنكم انتهيتم من حديثكم الشيق الذي لن يغير شيئًا في أمر الدنيا أو ما قضاه الله علينا جميعًا، لا زلت أرى أننا يمكننا دخول هذه المحمية لتفحصها ومعرفة ما يدور داخلها أو الاستمتاع فيها كما يستمتع أهلها، من لديه نفس شغفي إذن؟

سكتوا جميعًا وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض حتى قال عادل بتحدٍ:

- أنا سأذهب معك يا وليد.

ثم قال بنفس التحدي أسامة:

- وأنا لن أترك أستاذي ورئيسي يذهب وحيدًا.

بينما قال مؤمن بخوف:

- حسنًا يمكنني أن أخفي أمرك يا وليد عن رؤسائنا على البريمة حتى تعود.

- حسنًا وماذا عنك يا زيزو؟

أخذ مصطفى يفكر مليًّا وبدا عليه بعض الحذر أو الخوف قبل أن يقول بصوت خافت:

- سأذهب معكم يا وليد.

- يا لك من رجل.

ابتسم المغامرون الأربعة في مرح قبل أن يقول عادل:

- أعتقد أن أنسب وقت للذهاب هناك قبيل أذان الفجر.

- نعم، هو كذلك بالفعل، سننتظركما يا عادل ومعك أسامة عند الخامسة فجرًا، لا تتأخرا.

- حسنًا.

حان وقت الذهاب إلى المناوبة الليلية على البريمة، فقام مصطفى ومؤمن ووليد واتجهوا إلى البريمة في الثانية عشرة عند منتصف الليل تمامًا، كان وجه وليد باسمًا متحمسًا بينما كان مصطفى عابسًا مقطبًا الجبين لا يشعر بخيرٍ أبدًا، كان لا يرى إلا ملامح هذه الفتاة الصغيرة أميرة، كانت ملامحها الباردة الجامدة تبتسم إليه هذه المرة، ابتسامة غامضة رغم شعوره بوُدِها الذي لم تظهره له قبل ذلك... أبدًا.

****

الفصل السابع

حكاية أميرة

كانت تلك الابتسامة الغامضة رغم جمالها مصدر قلق لمصطفى الذي لم يعهد من أميرة تلك الابتسامة، كان يراها كلما سهر لياليه، كلما راودته أحلام مخيفة أو كلما تعرض لمواقف صعبة في حياته، كانت معرفته بأميرة من وحي خياله، فهو لم يعرفها ولم يقابلها من قبل، كان كلما ذكرها دعا لها بالرحمة والمغفرة، ولروحها بالسكينة، عندما وصلوا إلى البريمة كانت ملامحه مختلفة وغريبة لم يعهدها عليه رفيقاه، وهو ما حدا بمؤمن أن يسأله باستغراب:

- ما لك يا مصطفى؟ أرى علامات ابتسام ثم جمود وبرود واضطراب كذلك ثم ابتسامة تبدو غامضة، هل أنت بخير يا صديقي؟!

- أنا بخير لا تقلق، لقد... تذكرتُ أميرة وحسب، هذا كل شيء.

تدخل وليد في حديثهما قائلًا:

- يمكنك ألا تغامر بالذهاب معنا يا زيزو، أنت لستَ مضطرًا لهذه المغامرة ف....، من هي أميرة تلك؟!

- هل هي حبيبتك السابقة؟

سأل مؤمن في حماس مشجعًا مصطفى كي يحكي لهما قصته مع الحب ولوعته، لكن مصطفى ابتسم قائلًا:

- هل تريدان أن تعرفا قصتي مع أميرة؟!

- نعم.

- إذا لم يزعجك الحديث عنها، فلا بأس.

- حسنًا، بدأت قصتي مع أميرة عندما كنتُ في الصف الرابع الابتدائي، بينما كانت هي في الصف الثاني الإعدادي...

- هل أحببتَ فتاة تكبرك بثلاث سنوات يا زيزو في هذه السن الصغيرة؟!

ضحك مصطفى من سؤال وليد الذي كان متسرعًا كعادته ثم قال:

- من تحدث عن الحب الآن؟ أميرة ليست قصة حبي بل موعظتي وحكمتي الدائمة منذ كنت في التاسعة من عمري.

- حكمة وموعظة؟!

- هلا تركت الرجل ليكمل كلامه يا وليد؟ دعنا نستفيد من موعظته الدائمة تلك.

- حسنًا حسنًا، أكمل يا سيد زيزو.

- في قريتنا الصغيرة، لم يكن الأطفال يهتمون بتعليمهم ودراستهم قبل عشرين سنة، وكذلك لم يكن الأهالي، فهم يعتقدون أن النجاح في الدراسة ليس مرتبطًا تمامًا بالمذاكرة الجيدة والمستمرة، كما أن النجاح لا يعني إلا عدم الرسوب، في حين أن كونك استهدفت ألا ترسب فقط يعني

أنك سترسب بنسبة كبيرة، أنا أتحدث عن الاجتهاد والتفوق وتحصيل الدروس والمذاكرة باستمرار لنيل أعلى الدرجات، فهذه الفكرة لم تكن منتشرة في قريتنا، فقط يكفيك عدم الرسوب لتكون ناجحًا سواء بالنسبة إليك أو إلى أسرتك.

- أعتقد أننا نفهم ما تقول، هلا أكملت؟

- في الفصل الدراسي الأول من هذا العام حيث كانت أميرة في الصف الثاني الإعدادي، ظهرت النتيجة لكنها لم تنجح، بل رسبت في أربع مواد دراسية، كان الأمر عاديًا أن يرسب أحدهم أو إحداهن في قريتنا وربما كل القرى من حولنا أيضًا لكن الأمر بالنسبة لأميرة لم يكن كذلك، فهي أصغر إخوانها، وكانت تخشى أن يضربنها عندما تخبر أسرتها بالأمر....

بدأ وليد ومؤمن يشعران بالفضول والحماس لمعرفة نهاية القصة وكذلك الموعظة منها، فقال مؤمن:

- أكمل يا مصطفى، لمَ توقفت؟

- أرى أميرة تبكي بعدما كانت تبتسم قبل قليل.

تجمد رفيقاه في مكانهما بينما ينظران حولهما بقلق، فسأل مؤمن:

- هل تريدك أن تتوقف؟

- لا، لكنها تذكرت ذلك اليوم فبكت، حسنًا، إنها لا تمانع أن أستكمل قصتها، ذهبت إلى أمها تحمل ورقة صغيرة مكتوبًا عليها" شهادة نصف العام" وتشير هذه الشهادة إلى أنها حصلت على درجات أقل من الدرجة

الصغرى للنجاح في أربع مواد دراسية، وأحيطت درجاتها في هذه المواد بدائرة حمراء ظاهرة للعيان، حتى أن أمها التي لا تعرف القراءة والكتابة استطاعت تمييزها، هل تعرفان ماذا أخبرتها أمها عندما علمت برسوبها؟

- لا.

- ماذا؟!

- أخبرَتها أن تحرق نفسها قبل أن يعود إخوتها من أعمالهم فيبرحونها ضربًا حتى الموت.

- لا بد أنك تمزح....

لم يدع مصطفى وليدًا يكمل كلماته بل قال بألمٍ شديد:

- أتعرفان ماذا فعلت أميرة؟!

بدأ مصطفى يتأثر بما يحكيه، فضعف صوته، وبدا الدمع جليًّا في مقلتيه لكنه أكمل ولم ينتظر جواب أحدهما:

- لقد ذهبت إلى المطبخ، وأمسكت بموقد الكيروسين" وابور الجاز القديم" وصبّت الكيروسين بيدها على رأسها وأشعلت النار في جلبابها فاحترقت؛ لم تتحمل النار تأكل في جسدها، فهرعت خارج البيت تصرخ وتبكي، فرأها أحد الجيران على هذه الحال فأمسكها وألقى بها في مصرف المياه" التُرعة" المجاور لبيتها اعتقادًا منه أنه ينقذها من خلال إطفائها بالمياه؛ ماتت أميرة حرقًا وغرقًا وجهلًا.

وضع وليد راحته على جبينه محاولًا أن يخفي حزنه أو غضبه ودموعه كذلك بينما لم يستطع مؤمن منع دمعة ترقرقت في عينه اليسرى قبل أن يقول بحزن:

- رحم الله هذه الأميرة المظلومة.

لم يعرف مصطفى أميرة قط، هو فقط عرف حكايتها كما عرفها أهل القرية والقرى المجاورة جميعًا، عرف معنى الخذلان من أقرب الناس عندما تدبرَ حكايتها وتذاكرها بينه وبين نفسه، عرف معنى اليأس والإحباط الذَين قد يدفعان المرء إلى إيذاء نفسه بلا وعي أو مراقبة لله واهب الحياة؛ لا شك أن حكاية أميرة التي ظلت عالقة في مخيلته منذ ذلك الوقت كانت دافعًا له ليصبح مجتهدًا متفوقا في دراسته، ولا شك أن روحها تعلقت به واطمأنت بصحبته ودعائه لها بالسكينة والرحمة، لا ريبَ أنه أدرك أن الجهل رأس الفساد والاستبداد وممارسات العنف والرذائل، ظل يسأل نفسه لماذا لم يضع هذا الرجل غطاءً كثيفًا" كبطانية مثلا" على أميرة عندما رأها تحترق بدلا من إلقائها في الماء، لا بد أنه كان جاهلا بهذا الأمر، ربما تفاجأ بحالها كذلك فلم يفكر جيدًا؛ أدرك أن القَدَر لا يمكن الفرار من أحكامه، وأدرك أن العلم كالصبر والصوم، منجاة من الرذائل والمهالك.

كانت تلك هي حكاية أميرة وموعظتها الخالدة التي أثرت حياته بالعِبَر كما أثّرَت فيها، كانت حكايتها موضعًا للنقد والدراسة والتحليل دائمًا، يطبقها على حياته، يستخدمها في مواقف مختلفة من حياته، حتى أن أميرة كانت

خير مؤنس له عندما فقد حبيبته الوحيدة قبل شهور، لا ينكر أن فقدها كان ضربة موجعة كادت تفتك بتفكيره وتدبيره والكثير من خطط حياته ومستقبله، لكنه نجح- ولو مؤقتًا- في العودة إلى طريق الحياة من جديد.

.....

كانت المسافة بين معسكر الشركة حيث يبيت عادل وأسامة وبين بريمة الحفر ما يقرب من **20** دقيقة، وكانت المسافة بين موقع البريمة والناحية الخلفية للمحمية فقط سبع دقائق؛ عندما اجتمع عادل وأسامة بوليد ومصطفى كانت الساعة تشير إلى الخامسة وخمس دقائق صباحًا، مما يعني أن الفجر سيؤذن بعد نصف ساعة تقريبًا، انتظروا ربع ساعة قبل أن يتجهوا ببطء إلى الجهة الخلفية للمحمية والتي كانت محاطة بسور من السلك الشائك، على الضوء الخافت لأنوار القمر فجرًا ساروا ببطء شديد، تحركوا متفرقين بعرض الطريق مبتعدين عن بعضهم البعض مسافة عشرة أمتار، كي يحاول كل منهم أن يجد مدخلًا يدخل منه الجميع ليصبحوا داخل المحمية، كان هذا الشاب أسامة أخفهم وزنًا حيث كان قصيرًا لا يتعدى طوله **165** سم، كما أنه كان نحيفًا فلم يزد وزنه عن **65** كيلو جرامًا تقريبًا، بينما كان الآخرون أطول وأثقل، تحرك أسامة أسرع من الجميع وبحث أكثر حتى وجد منفذًا ارتفع فيه السلك الشائك عن الأرض مسافة **20** سم تقريبًا، مما استدعى من الجميع أن يزحف على بطنه حتى يتمكنوا من الدخول، كان مصطفى أكثرهم وزنًا حيث بلغ وزنه **90** كيلو جرامًا

نظرًا لطوله الذي تخطى **182** سم، كان الأمر شاقًا بالنسبة إليه لكن رفاقه ساعدوه حيث جذبه وليد من الداخل حيث سبقه بدخول المحمية بينما دفعه عادل وأسامة من الخلف حتى أصبح بالداخل ثم لحقا به، صاروا جميعًا داخل المحمية، أخرج وليد كشافا كهربيًا صغيرًا فجعله على الضوء الخافت ثم بدأ يوجهه يمينًا وشمالا ليرى هذا العالم الغريب، كان هناك بعض الصوب تحتوي على نباتات لم يعرفوها، كذلك بعض الأزهار ذات اللون الوردي والبنفسجي والأزرق الغامق، تحركوا أكثر للداخل بسرعة أكبر كي لا يهزمهم الوقت بنفاده، رأوا ثمة غرف واسعة وأقفاص كبيرة تحتوي على طيور جارحة وحيوانات مفترسة وخيول عربية أصيلة وكذلك نوق قوية، بالطبع خشوا من دخول هذه الغرف لكنهم شاهدوها من خلال بعض النوافذ المفتوحة في هذه الغرف، تحركوا يمينًا على رصيف ممهد خلف هذه الغرف، أخذهم هذا الطريق إلى مجموعة من القاعات والاستراحات والتي لم يدخلوها كذلك لضيق الوقت وكذلك خوفهم من أن يمسك بهم أحد لكنهم استطاعوا قراءة لوحات مضيئة مكتوب عليها نادي السينما، نادي الصيد، نادي السباق وغيرها، لم يفُتهم أن يتأكدوا من وجود مهبط للطائرات العمودية " الهيلوكوبتر" كذلك، فهم يرون هبوط وإقلاع بعضها بين الحين والآخر في فترات النهار، مشوا في الاتجاه الآخر خلف استراحة ما أي عكس اتجاه الطريق الممهد، وكانت الأرض من تحتهم رملية صخرية

كتلك الأرض التي يعرفونها، أرض الفيافي الجدباء، مشوا على غير هدى لمدة ثلاث عشرة دقيقة تقريبًا حتى قال مصطفى بصوت خفيض:

- أخشى أن ننسى طريق عودتنا إلى البريمة.

- لا تقلق يا صاح، أنا أعرفه جيدًا ثم إننا لم نمضِ أكثر من ساعة حتى الآن.

- هذا ما أخشاه يا وليد، أن يفتقدنا الحفار أو مساعده أو رئيس العمال.

- لا تقلق، إنها ساعة الفجر ولن يسأل عنا أحد ثم إن مؤمن سيقوم بدوره.

بينما يتحدث مصطفى ووليد، أشار عادل في ظلام الليل الذي أوشك الفجر الجديد أن يبدده إلى كهف كان يقف أمامه شخصٍ ما قبل أن يدخله قبل لحظات، سأل عادل بلهفة وترقب:

- ما هذا الكهف؟ ولأين يؤدي؟ وأين ذهب هذا الرجل الذي كان يقف أمامه منذ لحظات؟

- سنعرف كل شيء الآن يا عادل.

- كيف؟

- سنذهب إليه طبعًا.

ثار مصطفى مرة أخرى من قول وليد الذي لم يكن مُقدرًا خوف صاحبه على الإطلاق فقال بعصبية:

- ليس الآن يا وليد، يمكننا العودة مرة أخرى، فالوقت...

- أنت تعرف أننا لن نعود مرة أخرى، إنها فقط نصف ساعة إضافية ونعود إلى البريمة.

قال عادل محاولًا تهدئة مصطفى:

- لديه حق يا مصطفى، فنحن لن نعود هنا مرة أخرى، كذلك فنصف ساعة ليس بالوقت الطويل، ستكون الأمور على ما يرام، دعنا نكسب الوقت ونتحرك تجاه الكهف الآن.

لم ينتظر عادل إجابة مصطفى، بل تحرك ومعه وليد مع انتهاء كلامه فلحقهما أسامة ومن خلفه مصطفى الذي كان خائفًا مذعورًا.

دخل الشباب الأربعة الكهف الذي لم يكن مظلمًا تمامًا من الداخل، فهناك مصابيح مضيئة في أماكن متفرقة منه، لم يعلموا مصدر الكهرباء المشغلة لهذه المصابيح لكن مصطفى اعتقد أن ثمة مولد كهربائي بالداخل، انتبه عادل إلى وجود سلم حديدي في أقصى يسار الكهف وكان على وشك النزول حتى استوقفه مصطفى قائلًا بصوت خافت:

- لا يمكننا النزول جميعًا، يجب أن ينتظر اثنان منا هنا ليحذرا الآخرين إذا حدث أي مكروه أو ينبهاهما إذا تأخرا.

- معك حق، سأذهب مع عادل بينما تنتظر مع أسامة هنا، انتبها لنفسيكما.

- حسنًا.

أنت أحيانًا لا تعرف كل ما بداخلك، وكذلك لا تعرف ما بداخل الآخرين، فوليد وعادل لديهما طاقة هائلة وروح مغامرة لا تقارن بمصطفى وأسامة، فإقدامهما كان مفاجئًا لهما وربما لم يعرف وليد أو عادل ذلك عن نفسيهما، ربما كان يتصرفان حسب الموقف أو الظرف الذي يمران به، وربما ليس ثمة عجب أن كانا أول من تحمسا لاستطلاع هذه المحمية ومعرفة أسرارها؛ كان مصطفى منشغلًا بشيء ما بينما يطالع باستغراب هذا الكهف عندما سأله أسامة بشيء من البرود:

- ماذا هناك؟

- لا شيء، لقد تذكرتُ أمرًا ما.

- ماذا؟

- إنها... أميرة.

- من؟!

- لا عليك، سأخبرك عنها يومًا ما عندما نخرج من هذا الكهف.

- لستُ مهتمًا بالأميرات.

- ولا أنا.

خلال دقائق معدودة كان عادل ووليد ينظران باندهاش وإعجاب إلى هذه المعدات العملاقة التي بدت كبريمة صغيرة بلا برج شاهق كالذي يرونه على البريمة، استطاع وليد التعرف على بعض المضخات والتي يشبه بعضها مضخة الطفلة المستخدمة في البريمة التي يعمل عليها، كما استطاع عادل

التعرف على بعض الصهاريج متوسطة الطول والحجم والتي احتوت على مياه مالحة أو جوفية، نظر الشابان إلى بعضهما البعض في إعجاب وانبهار بما يرونه، وبصوت خافت سمعه وليد بصعوبة بالغة قال عادل:

- يبدو أن المحمية هي مجرد غطاء لأعمال تنقيب عن الذهب أو ما شابه.

- هل أنت متأكد؟

- لا، ولكنهم لا يبحثون عن نباتات نادرة بهكذا طريقة يا رجل، ألا ترى؟!

- أقصد هل أنت متأكد أنهم ينقبون عن الذهب؟

- ماذا إذن؟

- لا أعرف، دعنا نذهب الآن كي لا نتأخر على مصطفى وأسامة.

عادا مسرعين إليهما لكن سرعان ما ارتسمت على وجهيهما علامات الصدمة والقلق لأن رفيقَيهما لم يكونا وحدهما بل كانا في رفقة مكونة من خمسة حراس أقوياء يرتدون ملابس سوداء تتماشى تمامًا مع ألوان بشراتهم الداكنة ونظراتهم المفزعة، قال أحدهم بسخرية وازدراء:

- يبدو أن شكوك الشيخ موسى كانت في محلها، لقد شاهدكم تتجهون إلى هنا، اعتقد أنكم لستم مجانين كي تأتوا إلى هنا، لكنه اتصل ينبهنا على كل حال.

- موسى صبيح؟! هل يعمل معكم؟!

- هذا ليس من شأنك.

أمر هذا الحارس والذي يبدو أنه رئيسهم بقية الحراس أن يشدوا وثاقهم، ويكمموا أفواههم، ثم أمرهم بمصادرة كل ما يحملونه معهم، وإبقائهم في إحدى الغرف إلى أن تأتي الأوامر بما يُصنع بهم؛ في هذه الغرفة التي حبسوا فيها لم يستطيعوا الكلام سويًا لكن كانت نظراتهم لبعضهم البعض تقول كل شيء، كانوا يشعرون بالخوف والضعف والعجز، والندم كذلك، وحده مصطفى كان مبتسمًا ببرود، ينظر إليهم ثم ينظر إلى أحد الجدران، يطالع فيها وجهًا ينظر إليه بنفس الابتسامة الغامضة التي أدرك الآن أنها ربما كانت تعني شيئًا واحدًا فقط هو... اقتراب النهاية.

****

الفصل الثامن

بداية ونهاية

لم يعد الرفاق الأربعة إلى البريمة، انتظر مؤمن ساعتين أو أكثر قليلًا، حاول الاتصال بمصطفى ووليد أكثر من مرة رغم أنهما أخبراه قبل رحيلهما أنهما سيغلقان هاتفيهما عندما يصبحون داخل المحمية، لكنه شعر بالقلق ولم يجد حلا غير محاولة الاتصال بهما، انتظر ساعة أخرى حتى أصبحت الساعة الثامنة والنصف صباحًا فلم يجد بدًا إلا أن يبلغ الريس محمود الذي أبلغ مهندس السلامة وكذلك الحاج بهاء مسئول البريمة برمتها، وصل الأمر إلى مدير الحفر بالشركة المنتجة ومنه إلى صديقه مدير الحقول المهندس ناصر الديب الذي سرعان ما سأل عن أسماء عاملَي الحفر الذَين فقدا منذ فجر اليوم، وكانت صدمته كبيرة عندما علم أن أحدهما هو المهندس مصطفى زيدان الذي هو ابن أخته الوحيدة السيدة نادية الديب.

كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة إلى الجميع أن يعرفوا أن المهندس ناصر الديب هو خال مصطفى زيدان عامل الحفر الجديد بالبريمة، لمَ أخفى ذلك؟ ولماذا لم يخبر صديقه المهندس أيمن داغر مدير الحفر بالبريمة بالأمر؟ لم يكن هناك مجال للحديث طويلا حول الأمر، فحتى مصطفى نفسه لم يخبر أحدًا

أن نسبه يتصل بمدير الحقل، فهو لم يكن يحب أن يعامل معاملة خاصة بفضل قرابته من مدير الحقل، وقد التقت رغبته تلك مع شخصية خاله الذي لا يحب أن يعتقد أحدهم أنه يستخدم نفوذه أو صِلاته الكثيرة لتوظيف أقاربه في قطاع البترول.

كان ما يشغله هو إيجاد مصطفى ورفاقه، أبلغ المهندس ناصر رؤساءه وكذلك مسئولي أمن الشركة بالأمر ثم اصطحب معه الخفيرين نادي وموسى في سيارتين للبحث عن المفقودين، استمر البحث حتى الخامسة والنصف مساءً حتى غربت الشمس دون أن يصل إليهم، في اليوم التالي ظهرًا حضر بعض رجال الأمن ومعهم مدير أمن الشركة لمتابعة آخر التطورات واستكمال البحث والتحدث مع العاملين حول علاقتهم بالمفقودين وإن كانوا سمعوا منهم بعض ما يثير الريبة، وكذلك حاولوا معرفة أواخر أحاديثهم وكلماتهم لزملائهم وأصدقائهم المقربين لكنهم لم يصلوا لشيء إلا عندما تحدثوا إلى مؤمن عامل البريمة الذي سأله ضابط الشرطة:

- هل كنت مع زميليك مصطفى ووليد في مناوبة تلك الليلة؟

- نعم، إننا نعمل في نفس المناوبة منذ وصلنا هنا قبل عشرة أيام تقريبًا.

- هل تحدثا عن الذهاب لمكانٍ ما؟

- لقد..... إنهما.....

- تكلم يا مؤمن، هل تعرف شيئًا يمكنه أن يقودنا إلى مكانهم.

- في.... هذه الليلة بينما كنا نلعب الورق والدومينو مع عادل وأسامة المفقودَين كذلك، سمعتهم يتحدثون عن الذهاب إلى المحمية.

- هل تقصد هذه المحمية؟!

أشار الضابط باتجاه المحمية التي تبعد مئات الأمتار عن الموقع.

- نعم، لا أعرف هل ذهبوا حقًا أم أن مكروهًا وقع لهم قبل أن يصلوا إليها.

- حسنًا، ماذا كانت فكرتهم بالضبط؟

- لقد اتفقوا أن يذهبوا إليها عند الفجر، ويبدو أنهم فعلوا ذلك حقًا.

قبل أن يتخذ ضابط الأمن العقيد يوسف حمزاوي قراره بمداهمة المحمية، جاءت الأخبار بأن الخفيرين نادي وموسى قد وجدا ثلاث جثث غرب الموقع في الاتجاه العكسي للمحمية تمامًا، على الفور توجهت الشرطة ومدير الحقل ومدير الأمن الإداري بالشركة وبعض رجاله إلى هناك بعد هذه المكالمة الهاتفية من الخفير نادي منصور إلى مدير الأمن بالموقع وعلى إثرها توجه الجميع إلى هناك، خلال عشر دقائق وصلت السيارات إلى المكان المحدد حيث كانت تقف سيارة نادي وأمامها نادي وموسى الذَين كانا جامدين كصخر الصحراء القاسي، كانا يقفان على مسافة أربعة أمتار من الجثامين الثلاث والتي كانت متناثرة الأعضاء، ممزقة الملابس، لم تكن ملامح الوجوه واضحة بالكامل، كانت الأحذية الواقية مبعثرة بالقرب منهم، لم يتحمل المهندس ناصر بشاعة المنظر، فأشاح بوجهه بعيدًا وأخذ يبكي ابن أخته، بينما أمر العقيد يوسف حمزاوي بالبحث عن الجثمان الرابع الذي لا

بد أن يكون قريبًا من هنا، قسّم رجاله أنفسهم أربع مجموعات ثم ذهبت كل مجموعة تبحث في اتجاه معين من الاتجاهات الأربعة بطول مائتي متر، وبعد ساعة تقريبًا عُثر على الجثة الرابعة، ولم تكن أحسن حالًا من الجثث الثلاث الأخرى.

جُمعت الجثث بعضها إلى بعض وأمر بنقلها إلى المستشفى العام بالمحافظة، حيث المشرحة لاستكمال إجراءات الفحص والتشريح قبل الأمر بتسليمها إلى الأهالي والتصريح بدفنها.

تم إبلاغ أُسر الموتى الأربعة بما حدث لذويهم باعتبار أن ما حدث كان بسبب مهاجمة حيوانات مفترسة ككلاب أو ذئاب كما هو واضح من المشاهد التي رآها الجميع بأم أعينهم؛ كان الانهيار والضعف مُطبقًا على المهندس ناصر الذي تحلى ببعض الصبر ليبلغ أخته وزوجها بما حدث لابنهم مصطفى، سقطت نادية على الأرض بعدما أغمي عليها عندما أخبرها ناصر بما حدث، كان زوجها ماهر زيدان أكثر صبرًا واحتمالًا منها، فسكت قليلًا ثم انساب الدمع بين عينيه دون أن يشعر وطفق يقول" حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل، إلى رحمة الله يا بني، إنا لله وإنا إليه راجعون" ودخل في نوبة بكاء بينما تحاول ابنته سالي في جزع حمل أمها نادية التي سقطت مغشيًا عليها فلم تنجح، هرعت إلى إحدى جيرانهم تطلب مساعدتها، وعادت معها لتحمل أمها المكلومة إلى غرفة

نومها ثم تتصل بسرعة بالإسعاف لتنقذ أمها التي لم تستجب لنداءاتها ومحاولاتها المتكررة لإفاقتها وإيقاظها.

في المستشفى كانت سالي تجلس إلى جوار والدتها المسكينة في إحدى الغرف، حيث وضعت لها الممرضة بعض المحاليل بعد أن حقنتها ببعض المواد المهدئة كونها كانت تعاني من صدمة نفسية حادة، استمرت على هذه الحال طوال أسبوع بينما كان زوجها وابنتها وإخوتها ومنهم ناصر الذي أخذ إجازة وعاد إلى أخته عندما شعر أنها أصيبت بصدمة كبيرة عندما أبلغها بوفاة ابنها مصطفى؛ عندما رآه على هذه الحال التى وجده عليها قبل أسبوع ورغم حزنه الشديد على موته كان أكثر ما خشاه هو كيف عليه أن يخبر أخته وزوجها بهذا الأمر، وكيف سيواجههما عندما يتهمانه ولو دون تصريح بالتقصير في حماية ابنهما، كان أشد ما يخشاه هو لوم وعتاب عيونهما له، لم يتهمه ماهر زوج أخته بشيء، ولم يتحدثا عن الأمر لكنه شعر أن ماهر يتحاشى الحديث معه، لم يسأله كثيرًا عن الأمر، كان كل ما يهمه أن تقرر النيابة الإفراج عن جثمان ابنه وتصرح بدفنه، وما كان ذلك ليتم دون مطابقة البصمة الوراثية له مع ابنه، وكذلك مراجعة بصمات الأصابع وعلامات الجسم والمواصفات الجسدية للجثامين الأربعة، وبعد عشرة أيام تم الأمر وصرحت النيابة بالدفن، وكان جنازته مهيبة حيث خرجت القرية بأكملها لتوديعه وإيداعه مثواه الأخير.

.....

ذهب المهندس ناصر الديب بعد انتهاء العزاء مع صديقه الشيخ عيسى أيوب، فقد كان بحاجة إلى الحديث والبكاء مع أقرب المقربين منه، كان الشيخ عيسى هو من شجعه على سلوك طريق الرقية الشرعية، والعلاج بالقرآن كونه كان دائم التعرض للمس والحسد وكذلك زوجته وأبناءه كما ادعت زوجته حينها؛ فكان الشيخ عيسى يذهب كثيرًا إلى بيتهم مما جعله يدعو صديقه إلى تعلم الرقية الشرعية والعلاج بالقرآن، وضعه الشيخ على الطريق لكنه لم يكتفِ بعلاج ورقية نفسه وزوجته ووالدته، بل أخذ يقرأ ويدرس ويطالع الكتب وجعل يعالج أقاربه وبعض أصدقائه وأهل قريته بل وزملاءه وذويهم في بعض الأحيان كذلك، وكان فني اللحام عادل عيد هو آخر من عالجهم في موقع عمله بوادي جهنم قبل موته بأيام.

قال الشيخ عيسي بحزن لصديقه:

- أنا أشعر بما تمر به، لقد أحبت القرية بأكملها مصطفى، فقد كان فتى خلوقا مؤدبًا متفوقا، لكن أمر الله نافذ وأرجو أن يتغمده في رحمته، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

دخل ناصر في نوبة بكاء علا معها صوته، احتضنه صديقه قائلًا بثبات:

- صبرًا يا صديقي، كلنا أموات، أحياء إلى حين فقط، فاصبر وما صبرك إلا بالله.

- أخشى أن... أكون سببًا في موته يا عيسى.

- إنه قدر الله، لا يمكنك دفع الموت عن أحد، فمن حانت ساعته انقلب إلى ربه وهو أرحم به من أمه وأبيه، لا يمكن أن تكون سببًا في موته كونك لم تطلع أحدًا على صلته بك، أو كونه عمل معك بنفس الموقع.

- لقد كنت أعلم أن ثمة أمر مريب في وادي جهنم قبل مدة وأردتُ أن.....

سكت ناصر قليلًا ثم هدأ روعه بينما انتظر صديقه الشيخ عيسى أن يكمل حديثه، تاركًا له المجال ليفرغ هذا الهمّ عن صدره، فأردف ناصر:

- أرادت أختي نادية أن أجد له عملًا معي لأنه كان يعاني من صدمة كبيرة كادت أن تدفعه إلى الاكتئاب بعدما تزوجت تلك الفتاة التي أحبها طيلة حياته القصيرة منذ فترة وجيزة، رأيت أختي حزينة على ابنها الذي أحبه كثيرًا أيضًا، والذي عرفتُ مؤخرًا أن بإمكانه رؤية هذا العالم المخفي عنا، لقد حكى لي عن أقوامٍ من الجن ووصفهم لي كما نعرفهم تمامًا، كانت.... كانت مفاجأة كبيرة جدًا بالنسبة إليَ، لقد استخدمته لعلاج بعض الحالات في القرية وقد ساعدني كثيرًا بما قدمه لي من معلومات عن بعض الجن العاشق والطائر الذين استخدمهم السحرة في إيذاء الناس، كانت سعادتي بالغة عندما أدركت أنني وجدت كنزًا ثمينًا يمكنني استخدامه لعلاج الناس وحل تلك الأمور التي أضرت بهم طويلًا بسبب مس الجن وإيذاء السحرة والمشعوذين والدجالين.

كان صديقه الشيخ عيسى ينصت إليه متعجبًا مذهولًا من هذه الأمور التي يحكيها له ناصر للمرة الأولى، وعندما سكت ناصر أراد عيسى أن يستوضح بعض الأمور فسأل صديقه:

- هل تقصد أنك وظفته للعمل في موقعك هذا ليستطلع لك أمور الجن الذين اعتقدت أنهم يصنعون شيئًا ما هناك؟!

- نعم يا عيسى، هذا ما فعلتُه.

لم يجد عيسى ما يقوله، فقط اكتفى بنظرة حائرة تائهة لصديقه الذي تحاشى النظر في عيني صديقه، بل تابع قائلًا:

- لقد كنتُ غبيًا أنانيًا، لقد قتلوه يا عيسى، قتلوه مع ثلاثة من زملائه.

دخل ناصر في نوبة بكاء أخرى مشابهة للنوبة السابقة لكن عيسى حاول تهدئته قائلًا بنبرة مطمئنة:

- الجن لا يمكن أن يقتل الإنس يا ناصر، فالله سبحانه وتعالى لم يسلطهم علينا ولم يحدث ما تقول أبدًا ولا يمكن أن يكون ما حدث هو ما تقول، لقد كان قدرهم أن يموتوا بهكذا طريقة، فهي صحراء مقيتة رغم ثرواتها، قد يتواجد بها أودية وقبائل من الجن، وربما لم يسعدوا بوجودكم لكنهم لا يقتلونكم ولا يحاربونكم وإلا لحاربوكم من قبل، ربما هي ذئاب جائعة أو كلاب ضالة قد استوحشت عليهم وافترستهم كما قالت النيابة والشرطة، لكنهم لم يُقتلوا بيد الجن كما تعتقد، ولم تتسبب بمقتلهم لكنها الأقدار بالنهاية.

- لكن... ماذا دفعهم للذهاب بعيدًا عن الموقع أو البريمة؟ لماذا لم يخبرني أو يتحدث إليّ قبل فعله هذا؟!

- لأنه ذاهب إلى قَدَره، وما كنتَ لتمنع قَدر الله كما لن يفعل غيرك يا ناصر.

لم يستطع ناصر أن يمنع الشك أو اللوم أن ينفذ إلى صدره، رغم أن حديث صديقه الشيخ عيسى قد أراح قلبه بعض الشيء لكنه ما زال يعتقد أن موت مصطفى ورفاقه لا زال يحمل لغزًا كبيرًا لا يعرفه، لغزًا يرتبط بالجن والأفاعي و....، تذكر شهادة زميل مصطفى الذي أخبر الشرطة أن مصطفى ورفاقه كانوا في طريقهم إلى المحمية، كيف اتجهوا شرقًا بينما وُجدت جثثهم غربًا؟ هل جذبتهم الذئاب أو الكلاب الضالة كل هذه المسافة؟ لا يبدو احتمالًا معقولًا بالنظر إلى حجم وقوة أسنان هذه الحيوانات؛ هل الأمر يستحق التفكير والبحث والتحليل إذن؟ فمصطفى ورفاقه قد لقوا حتفهم في نهاية المطاف؛ اعتقدَ أن ثمة أسئلة كثيرة لا تجد الإجابات لكن هذه الإجابات لا يمكن أن يحصل عليها في بيته وبين أسرته، أسرته.... أين هي تلك الأسرة؟! إنه يشعر بالغربة بينهم تمامًا كما شعر بها طوال عشرين عامًا بين الرمال والصخور، وسط الصحراء، بين الأفاعي والعقارب والجن في وادي جهنم، كان يشعر أنه لم يعِش ولم ينعم بحب أسرته وبين أبنائه، لقد مزقته الصحراء إربًا إربًا، لم يبقَ له إلا هذا الأمر، لقد أصبح موت ابن أخته قضيته الوحيدة الآن؛ تذكر أختَه نادية حينها والتي لا زالت بالمستشفى وإن

كانت تتحسن حالتها؛ في اليوم التالي ذهب إليها واطمأن عليها وعلى زوجها وابنتهما سالي التي أصبحت وحيدة أمها وأبيها الآن، أخبرهم أنه سيعود إلى عمله ذلك اليوم، وأنه سيداوم على الاتصال بهم والاطمئنان عليهم لحين عودته من العمل، قبل خروجه من غرفة أخته المريضة بالمستشفى بعد أن ودّعهم قالت نادية بشبح ابتسامة ارتسم على وجهها:

- كان مصطفى سعيدًا بعمله هناك يا ناصر، لقد أخبرني أنك كنت على تواصل معه دائمًا وأن حالته النفسية والمعنوية كانت أفضل، فقد أحب عمله وزملاءه وأحب تلك الصحراء التي جعلته يعيد تفكيره في الكثير من أمور حياته، حتى لو مات هناك، فقد مات وهو سعيد وراضٍ عن نفسه.

بكت نادية وأبكت كل من كان حولها ومنهم ناصر نفسه الذي لم يتحمل دموع أخته رغم سعادته الدفينة بما قالته أخته حتى أنه سألها برجاءٍ والدموع تترقرق في عينيه:

- هل تقولين صدقًا يا نادية؟!

- أقسم أنه قال ذلك لي في الليلة التي سبقت وفاته يا أخي.

- الحمدلله.

بددت مقولة أخته كل الشك والعتاب الذَين حملهما لنفسه طيلة الأيام السابقة ومنذ وفاة مصطفى، وأثارت في نفسه رغبة كبيرة لاكتشاف لغز هذا الموت المفاجيء، الذي ارتاب كذلك إن كانت نفسه المرتابة الحزينة هي ما تبعث ذلك الارتياب في كل جنبات صدره وقلبه وعقله، لكنه على كل

حال سيعود إلى عمله وإلى حياته المفضلة والوحيدة بين الأفاعي والجن بوادي جهنم، وسينتظر ما قد تسفر عنه مجريات الأحداث هناك، لكنه سيمنح تركيزًا إضافيًا لهذه الأرض القريبة منه، أرض المحمية التي امتلكها الأمراء قبل عامين تقريبًا.

****

الفصل التاسع

أرض الأمـــراء

يا لغرابة حياتنا!! ففي لحظة ما نمتلك كل شيء وفي لحظة أخرى نفقد كل شيء وفي لحظة ثالثة لا يصبح لأي شيء قيمة، فلا معنى لأي شيء في حياتك، لا تحتاج لأحد، لا تطلب شيئًا من الحياة، لا تنتظر شيئًا من الآخرين، بل لا تود الحياة نفسها، واحذر أن تصل لذلك الشخص، فهذا الشخص خطير للغاية ليس فقط على الآخرين بل على نفسه، فهو لا يهاب أحدًا ولا الموت نفسه، بل يتعجل الموت كما يتعجل الطفل خوض معترك الحياة.

كان هذا الشخص الخطير هو ناصر الديب، يخبره كل ما يحدث حوله أن ثمة أمرًا غريبًا يحدث في الوادي، أمرًا لم يحدث طوال خمسة عشر عامًا قضاها في صحرائه وبين كهوفه، أمرًا استدعى خروج الأفاعي متنوعة الألوان والأشكال، هل أصبح الوادي واديًا للأفاعي، هل بات واديَ الأفاعي الثلاث؟! لا بد أن هذه الأفاعي تريد توصيل رسالة ما لكن كيف له أن يعرف فحواها؟ كان يجلس في غرفة نومه طويلًا ينظر إلى هذه اللافتات التي علقها على لوحة خشبية بطول متر ونصف في عرض متر ونصف كذلك، بينما كتب على لافتات من الورق بعض الكلمات والأسماء كالأفاعي الثلاث، عامل

الحفر، الضحايا الأربع، موسى صبيح وسر المحمية؛ كان يجلس طويلًا أما هذا الجدار الذي يحمل تلك اللوحة الخشبية المربعة ولا يسمح لأحد بدخول غرفته حتى لأجل تنظيفها، عرف من صديقه الشيخ عيسى أن الثعابين الخضراء غالبًا ما تتواجد في المقابر الفرعونية كحراس لها بهدف تفزيع وترهيب سارقي المقابر ولصوص الآثار والمعابد، ولم تكن هذه الثعابين لتنتشر في صحراء وادي جهنم بلا سبب، فهل يحتوي الوادي على مقابر فرعونية ومعابد أثرية قديمة؟ ربما هو أمرٌ مستبعد بالنسبة إليه لكنه ليس مستحيل الحدوث؛ حاول البحث عن تاريخ وادي جهنم منذ مئات وآلاف السنين، ظهرت له بعض المقاطع المصورة التي تتحدث عن تاريخ وجغرافية المنطقة والتي عرف منها أن هذه المنطقة الصحراوية قد مر منها بحر عظيم يُعتقد أنه ربما محيط كالمحيط الهندي أو الأطلنطي قبل مئات السنين؛ ربما يندهش بعضنا من هذا الأمر ولا يمكنه تخيل كيف تستحيل البحار أو الأنهار رمالًا وصحارٍ خاوية قافرة ووديانًا قاحلة وكهوفًا مهجورة، لكن الواقع يقول أن هذا ما حدث بالفعل، فالصحاري ملئ بقواقع محار البحار وعوالق مياه المحيطات وبقايا الأسماك ونباتات البحر مما يعني أن الصحاري قد تكون نتاجًا لجفاف بعض البحار والمحيطات طوال مئات وآلاف السنين، وربما في حقب تاريخية لاحقة لن ندركها بالطبع ستعود هذه الصحاري لتصبح أنهارًا وجنات يومًا ما؛ وربما كانت هذه التغيرات بسبب الطوفان العظيم في زمن النبي نوح عليه السلام

عندما امتلأت الأرض بالماء قبل أن تبتلع ماءها مرة أخرى بإذن الله لتعود موطنًا للبشر والحيوانات والنباتات على حدٍ سواء.

كان ناصر يركب سيارته كل يوم ويذهب إلى ذلك المكان حيث وجدوا جثة مصطفى ورفاقه، كان يتخيله واقفًا أمام سيارته مبتسمًا راضيًا فيبتسم له ويتمنى لو يتحدث إليه ويخبره بما حدث فهو لا يصدق أن الذئاب أو الكلاب قد أكلته ورفاقه، وكان دائمًا يتذكر قصة سيدنا يوسف الصديق والذي ادعى إخوته أن الذئب قد أكله عندما ألقوه في الجُب، كان يشعر أن تلك الذئاب والكلاب بريئة من دمائهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السلام؛ تذكر أمرًا ما وهو الهواتف النقالة لضحايا الافتراس، لمَ لم يجدهم أحد خلال بحثهم الطويل قبل العثور على جثثهم أو بعده؟! ربما لا يجب أن تكون بالقرب من جثثهم لكن ينبغي أن تكون سقطت منهم في حال كانوا يفرون من هذه الحيوانات المفترسة التي لم يسمع بوجودها طوال خمسة عشر عامًا قضاها في وادي جهنم، لكن أحدًا لم يجد أي هاتف لأيٍ منهم هنا أو هناك حتى لو تم كسرها أو دهسها بواسطة شيء ما أو أحدٍ ما لكانوا وجدوا أجزاءًا أو قطعًا منها لكن هذا لم يحدث، وهذا ما يعني أنها لم تكن معهم وقت افتراسهم أو.... قتلهم.

.....

كان اللواء فهمي بدران مستاءً بشدة بسبب موت هؤلاء الشباب قبل عدة أيام، فهو لم يرُقه ما قام به الشيخ نافع غراب من قتل وحشي لهم حتى وإن تم معالجة الأمر واعتباره حادث أليم في أحد مواقع بترول الصحراء الغربية بوادي جهنم إلا أنه لم يرد أن يظهر اسم الوادي في جملة مفيدة في أي صحيفة عامة أو خاصة والتي قد تتحدث عن مشروع المحمية هناك من قريب أو بعيد، بعد هذا الحادث بأسبوع فوجيء الشيخ غراب بسيارتين سوداوين تدخلان باحة منزله الكبير وينزل منهما اللواء فهمي وأحد مساعديه وبعض حراسه الشخصيين، رحب الشيخ غراب بهم رغم قلقه البالغ والذي بدا واضحًا في عينيه فقال في ابتسامة متربصة:

- أهلًا وسهلًا يا فهمي باشا، نورت بيتي المتواضع.

لم يرد اللواء بدران التحية بمثلها ولا أحسن منها بل قال بحزم:

- يجب أن نتحدث على انفراد يا شيخ نافع.

نظر له الشيخ نافع مترقبًا قلقًا قبل أن ينتبه لما طلبه اللواء فهمي منه فقال:

- تفضل، من هنا يا باشا.

أخذه الشيخ نافع إلى مكتب فخم وطلب منه الجلوس ثم جلس مواجهًا له وقال مرحبًا به مرة أخرى:

- يا لها من زيارة غالية يا باشا.

- دعك من هذه المجاملات يا شيخ نافع، أنا هنا لأمر معين.

- تفضل يا باشا، قل ما تريد.

أشعل اللواء فهمي سيجاره الضخم ثم رفع رأسه وقال بحزم مرة أخرى:

- ما حدث قبل أسبوع لا يجب أن يتكرر يا نافع، لا تتصرف من تلقاء نفسك بعد الآن، لم يكن عليك قتل هؤلاء الفتيان لأي سبب.

تراجع الشيخ نافع غراب بجسده محاولا الاعتدال في جلسته أو أخذ بعض الثواني ليفكر بها قبل أن يقول بتردد:

- أنا... لقد تمكنوا من الوصول إلى الكهف حيث نقوم بعملنا وأوشكوا على اكتشاف سرنا ال.....

قاطعه اللواء فهمي بدران بحدة:

- ذلك لأن رجالك أغبياء، كان عليهم منعهم قبل الوصول إلى هناك من الأساس.

- لقد ذهبوا إلى هناك عند الفجر تقريبًا ولولا أن أحد خفرائي شاهدهم لما تمكنا من الإمساك بهم.

- إننا نغامر بالكثير من الأموال في هذا المشروع يا نافع، أنت تشارك فيه بنسبة **10** بالمئة فقط، أما أنا ومن معي فنشارك بالباقي، وليس هذا فحسب بل إن معرفة الصحفيين أو الناس العاديين بالأمر بمثابة فضيحة كبرى لا تتحملها أنت ولا أنا ولا غيرنا من الشركاء.

قال الشيخ غراب مستفهمًا:

- تقصد الأمير سليم بن سعيد؟

- نعم، أنت تعرف كيف بدأ الأمر بالفعل، ولولا علاقتي بك التي تمتد لأكثر من عشرين عامًا ما أشركتك في هذا المشروع القائم تحت غطاء المحمية الطبيعية.

- أعرف خدماتك لي جيدًا يا سيدي، ولقد رأيت أن قتل هؤلاء العمال هو الحل الأفضل لأننا لا نعرف ماذا عرفوا عنا بالضبط، وكيف كانوا سيستخدمونه، لقد خشيتُ أن يصبحوا تهديدًا لمشروعنا، وكذلك حتى لا يقدم أحدٌ آخر على خوض هذه المغامرة مثلهم بعد ذلك.

- لقد عرفتُ أن الشرطة كانت تفكر في اقتحام أرض المحمية يا نافع، ولا نعرف ما قد يحدث حينها.

سكت الشيخ غراب وشعر بالخوف من مجرد التفكير في حدوث ذلك الأمر ثم قال ببعض اللؤم:

- أعتقد أنك تستطيع استخدام كل سلطاتك أو بعضها لمنع حدوث ذلك.

- بالطبع لن يسمح الأمير سليم ولا أنا حدوث ذلك لكن لكل شيء حدود يا نافع، ويجب أن يتم عملنا بأمان وسرية تامّين.

- لقد انتهى أمر هذا التهديد للأبد يا سيدي، وأعدك أن أزيد عدد الرجال حول الكهف وحول المحمية كذلك وسأنتبه بنفسي لكل شاردة وواردة من الآن.

- لا يجب أن أذكرك بكل ما أنفقنا من أموال من أجل شراء هذا الامتياز وتجهيزه باعتباره محمية طبيعية للحيوانات والنباتات النادرة وكذلك من

أجل شراء هذه الخرائط الجيولوجية التي كانت بمثابة الكنز الذي مهد الطريق لهذا المشروع قبل سنتين تقريبًا.

- أعرف كل ذلك يا سيدي وأعدك أن هذه الجهود والأموال لن تضيع سدى.

- حسنًا، يجب أن أغادر الآن.

- لكننا لم نتناول كوبين من القهوة حتى.

- ربما مرة أخرى يا شيخ نافع.

- وهو كذلك، كما تشاء.

.....

تذكر المهندس ناصر أمر زميل ابن أخته الميت قبل أيام مصطفى زيدان والذي أخبر الشرطة أن أصدقاءه قد أرادوا الخروج في مغامرة إلى المحمية، علم من زملائه في البريمة أنه في إجازته وسيعود بعد بضعة أيام إلى عمله بالبريمة، انتظره ناصر حتى عاد إلى وادي جهنم ثم ذهب إلى مكتب مدير الحفر بالبريمة صديقه المهندس أيمن داغر وطلب منه أن يدعو عامل الحفر مؤمن من خلال رئيس العمال بالبريمة للقدوم إلى مكتبه وخلال دقائق معدودة أتى مؤمن إليهما وقد شعر ببعض القلق كونه لا تجمعه بمدير الحفر صلة مباشرة أثناء العمل، طلب منه المهندس أيمن الجلوس بعد أن حياه مؤمن الذي تعجب واندهش كثيرًا بعد أن رأى المهندس ناصر يجلس بالقرب من مدير الحفر، بالطبع عرف أن صديقه مصطفى هو ابن

أخت المهندس ناصر بعد وفاته بهذه الطريقة المؤسفة كما عرف الموقع بأكمله حينها، بادره ناصر قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك وعودًا حميدًا إلى وادي جهنم يا مؤمن.

- سلمك الله يا باشمهندس ناصر، شكرًا لك، اعذرني لأنني لم أتمكن من حضور عزاء صديقي العزيز مصطفى، رحمه الله وجعل الجنة مستقره ومأواه.

- اللّٰهُمَّ آمين، لا عليك، المهم كنت تقول أن مصطفى ورفاقه أرادوا الذهاب إلى المحمية ولكنهم ربما ضلوا طريقهم....

شعر مؤمن بالقلق وتغيرت ملامحه عندما ذكر ناصر هذا الأمر فقال:

- أنا... لا أعرف بالضبط ماذا كانوا.....

أكمل ناصر حديثه رغم ذلك قائلًا بشك:

- تقع المحمية شرق البريمة ومعسكر الإقامة بينما وجدنا جثثهم غرب المعسكر على بعد ثلاثة كيلو مترات، هل من تفسير لديك لذلك؟

كان ذلك بالضبط هو ما تعجب منه مؤمن عندما عثرت الشرطة على جثث أصدقائه، فقد رآهم يتجهون شرقًا تجاه المحمية وكانت تلك خطتهم منذ تلك الليلة التي سبقت تحركهم فجرًا نحوها، إلا أن فاجعة موتهم بهذه الطريقة لم تتح له التفكير ومحاولة تحليل الأمر، كان المهندس ناصر ينتظر جوابًا منه لكنه لم يأتِ فأردف وقد ازدادت شكوكه في مؤمن أكثر وأكثر:

- يبدو أنك تخفي شيئًا ما يا مؤمن، ألم تقل إنهم كانوا أصدقاءك المقربين؟ ألا تعتقد أننا يجب أن نبحث أكثر في كيفية موتهم خاصة أنها غريبة بعض الشيء؟!

- أنا... لا أعرف ماذا حدث لهم بالضبط لكنني على يقين تام أنهم اتجهوا إلى المحمية بل إن.....

- ماذا؟ لمَ توقفت؟! أكمل حديثك.

- لقد تذكرتُ شيئًا ما ربما يكون مهمًا.

- ما هو؟

- هذا الخفير موسى، لقد رأيته خلف كثيب رملي، لقد كان يراقبهم بينما كانوا يتوجهون نحو المحمية.

نظر له المهندس ناصر نظرة عميقة أراد أن يتأكد بها إن كان مؤمن يقول الحقيقة، ومع ذلك سأله بشكٍ:

- أأنت متأكد يا مؤمن؟!

- نعم، إنه هو موسى صبيح، لا يمكنني أن أخطأه يا سيدي.

- حسنًا لكن أخبرني لمَ أرادوا الذهاب إلى المحمية؟ ما الذي كانوا يبحثون عنه هناك؟

- لا شيء، فقد سمعنا عن وجود حفلات وصخب هناك بين الحين والآخر وكنا نتحدث عن الأمر فأراد عادل ووليد وكانا مغامِرَين للغاية اكتشاف

الأمر بدافع الفضول وكسر هذا الملل في وادي جهنم وتبعهما في ذلك مصطفى وأسامة.

- أهذا كل ما تعرفه يا مؤمن؟!

- نعم، فقط... أمرٌ أخير.

- ماذا؟

- لقد سبق ورأينا في الليلة التي سبقت تلك الليلة أمر غريب لم نستطع تفسيره.

لمعت عينا ناصر واتسعتا فجأة وسأل بفضول:

- ما هو؟!

- لقد رأينا سيارتَي دفع رباعي من سيارات النقل التي يركبها بدو هذه المنطقة في وقت متأخر من الليل، كانتا تقتربان من أحد جوانب المحمية من الخلف...

- من الذي رأى؟

- أنا ومصطفى ووليد، بينما كنا نراقب خط الشعلة الذي يبعد عن البريمة مسافة كبيرة نسبيًا كما يعلم المهندس أيمن.

انتبه أيمن الذي كان يستمع لهذا الحديث بإنصات واهتمام كبيرين عندما ذكر مؤمن اسمه فسأل متعجبًا:

- ما معنى ذلك إذن؟! لا أعتقد أن أمرًا مريبًا في تحرك سيارتين من سيارات البدو ليلًا أو فجرًا بالقرب من المحمية، ربما كانتا تنقلان حراس أو خفراء المحمية أو تحملان لهم بعض الأغراض من طعام وشراب وغيره.

نظر ناصر إلى مؤمن تارة وإلى أيمن تارة أخرى ثم وافق صديقه أيمن قائلًا:

- ربما أنت محق يا أيمن.

رغم ذلك قال مؤمن بهدوء:

- لكن مصطفى في تلك الليلة اعتقد أنهم يتخفون من شيء ما، فقد اطفأوا أنوار سيارتَيهم وكانوا يتلفتون يمينًا ويسارًا حتى لا يطّلع عليهم أحدُ.

- ربما هذا ما شعرتم به بفعل الظلام الحالك في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

- ربما؛ حسنًا هذا كل ما أعرفه وقد أخبرتكما به، هل لي أن أنصرف؟

- نعم بالطبع، لكن لا.....

- لن يعرف أحدٌ ما حدث هنا؛ على كل حال لا أحد يهتم يا سيدي، رحم الله أصدقائي وألحقَني بهم على خيرٍ.

.....

عاد ناصر إلى استرحته بعد أن تناول العشاء مع صديقه أيمن الذي نصحه بمحاولة نسيان كل ما حدث، فلا معنى للبحث وتقصي الأمور بعد أن صار هؤلاء الشباب إلى مستقرهم الأخير، فكلام زميلهم مؤمن لا يثبت أي شيء ولا يقود يقينًا إلى حدوث جريمة منظمة كما قد يظن ناصر فليس معنى أن هذا الرجل موسى قد راقبهم بينما كانوا يذهبون تجاه المحمية أن ثمة جريمة قد حدثت، وليس معنى رؤيتهم لبعض سيارات البدو هنا أو هناك أن ثمة لغز في الأمر، كل ما هنالك أن بعض الشباب ممن يحبون المغامرات قد ذهبوا للحصول على مغامرة ما فطاردتهم بعض الحيوانات المفترسة التي ربما كانت بالمحمية وقتها حتى نهشت لحومهم وعظامهم قبل أن يتم السيطرة عليها أو شيء من هذا القبيل، هو لم يرد التقليل من مصاب ووجع صديقه ناصر بالطبع لكنه أراد أن يريح قلبه لعله يستريح من هذه النيران التي تتأجج في صدره بسبب فقده وفقد أخته لابنها الوحيد مصطفى؛ عاد إلى غرفته وما أن خلع ملابسه حتى سمع صوت هاتفه، كان المتصل هو ابنته الكبرى ذات الأربعة عشر عامًا فريدة، ابتسم عندما رأى اسمها على هاتفه ثم رد عليها بحب:

- كيف حالك يا حبيبتي؟

- الحمد لله يا أبي، لقد افتقدتك كثيرًا، لم تتصل بنا منذ مدة كبيرة، أين كنت؟!

- آسف يا حبيبتي، لا بد أنك تعرفين ما حدث لابن عمتك مصطفى....
- لقد عرفت يا أبي، رحمه الله وطيب ثراه.
- هل ذهبتِ للاطمئنان على عمتك إذن؟!
- أنا....

غاب صوت فريدة لثوانٍ عن أبيها الذي كان على وشك إغلاق المكالمة حتى سمع صوت زوجته علا تقول ببرود:

- لقد تحدثنا إليها على الهاتف لكن ابنتها هي من أجابتنا وطمأنتنا على حالتها.
- شكر الله سعيك يا علا.
- المهم، كنا نحتاج لبعض الأموال لشراء بعض الملابس لأبنائك.
- حسنًا، سأرسل لكم بعض الأموال.
- كذلك نحتاج لبعض المستلزمات للبيت والمدرسة وغيرها.
- لا مشكلة، ســـ....
- أرسل مبلغًا أكبر هذه المرة، فتكاليف الحياة أصبحت أكبر.

لم يتحمل ناصر الأمر أكثر رغم محاولته، فانفجر في وجهها غاضبًا:

- ألا تهتمين لغير الأموال؟ ماذا تعتقدين أني أعمل وكم أتقاضى؟! ألا يمكنك أن تعيشي وفقًا لإمكاناتنا المادية؟ لا تطلبين إلا المال دائمًا، ألم تفكري يومًا إن كانت هذه الأموال من حرامٍ أم حلال؟! ألم تفكري كيف

أعيش بدونكم لأجل الحصول على المال؟ ألم تفكري أنني أصبحت أشعر أنني أعيش بلا زوجة وأطفال؟ ألا تهتمين لأمري؟

- أهتم لأمر الأبناء أكثر يا ناصر.

- هم فقط من أتحملك لأجلهم يا علا.

- نفس الأمر بالنسبة لي.

- ليتك تعلمين ما فعلتُ لأجلهم.

- أعتقد أنني لا أهتم لذلك.

- أعتقد أنني لم أتفاجأ من ذلك.

انتهى ناصر من حديثه الكريه مع زوجته والذي يتكرر كثيرًا منذ سنوات، فوضع جسده على مضجعه وراح يسرح بخياله فيما حدث ويحدث معه منذ سنتين وحتى الآن، عاد بخواطره إلى تلك المحمية والتي كانت مجرد أرض صحراوية قاحلة فارغة منذ سنتين فقط، لا زال يتذكر تلك المقابلة التي حدثت بينه وبين الشيخ نافع غراب واللواء فهمي بدران، تلك المقابلة التي قلبت وادي جهنم رأسًا على عقب.

****

الفصل العاشر

المـشـــــــــــــروع

كانت المقابلة الأولى بين المهندس ناصر الديب والشيخ نافع غراب واللواء فهمي بدران معًا في مكتب المهندس ناصر بوادي جهنم قبل سنتين تقريبًا، رحب بهما ناصر وقتها والذي كان يعرف الشيخ غراب منذ مدة طويلة وتحديدًا منذ وطأَت قدماه أرض الوادي والذي كان يقع تحت سيطرة وحراسة الشيخ ورجاله وذويه باعتبارهم أهل هذا الوادي وقاطنيه منذ مئات السنين كما كان يقول الشيخ دائمًا عندما كان يتقدم للشركة بعقد حراسة جديد بقيمة مادية أكبر في كل مرة إلى جانب زيادة عقود المعدات والأفراد الخاصة به داخل حقول الشركة كذلك.

في ذلك اليوم كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها المهندس ناصر مع اللواء فهمي بدران والذي طلب من الشيخ غراب أن يدخلا مباشرة إلى مكتب مدير الحقول دون الوقوف عند نقاط الأمن الإداري وترك أي إثباتات شخصية له، بعد أن تناول الجميع قهوتهم في مكتب مدير الحقل قال المهندس ناصر بابتسامة ماكرة:

- يبدو أن الباشا من جهة أمنية لا يحب أن نتشرف بمعرفته.

ضحك اللواء فهمي ضحكة ساخرة قبل أن يقول بابتسامة ودودة:

- أعتقد أنك خمنت ذلك بسبب شاربي الكث وعدستَي السوداوين التين تخفيان عينين زرقاوين كما ترى.

قال اللواء فهمي ذلك بينما ينزع نظارته بهدوء قبل أن يردف:

- أنا اللواء فهمي بدران، سابقًا طبعًا، أنا الآن بالمعاش منذ بضعة شهور، ولدي بعض الأعمال هنا مع بعض الشركاء والذين من بينهم الشيخ غراب طبعًا، هذه المعلومات لك وحدك بالطبع يا باشمهندس ناصر وليست للجمهور العام كما تعلم.

ضحك المهندس ناصر وكذلك الشيخ غراب الذي قال:

- والآن ستفهم لماذا كان سيادة اللواء واضحًا وصريحًا تمامًا معك يا باشمهندس ناصر.

شعر ناصر أن الأمر يبدو جديًا ومهمًا للغاية، فاعتدل في جلسته ثم قال باهتمام:

- كيف لي أن أخدمكما؟

شبّك اللواء فهمي بين أصابع يديه ثم قال بجدية كبيرة:

- إننا نعلم جيدًا بعض الأمور عنك يا باشمهندس ناصر ومنها قدرتك المذهلة على التعامل مع هذه الأشياء والكائنات الغريبة التي تسكن الصحراء والكهوف وتحرس المعابد والكنوز الأثرية ونريد منك مساعدتنا في التغلب على هذه الأشياء التي تعطل بعض مشروعاتنا الكبرى، مع العلم أننا سندفع مقابلًا جيدًا جدًا لخدماتك الجليلة هذه.

كان هذا الطلب صادمًا للمهندس ناصر تمامًا، فبعد سنوات من القيام بهذه الأمور لخدمة الناس دون مقابل حان الوقت ليطلب أحدهم منه القيام بنفس الخدمات بمقابل كبير كما فهم من كلام اللواء فهمي بدران، أخذ يفكر طويلا في هذا العرض المغري، فلم يأخذه من تفكيره سوى صوت اللواء فهمي المميز بضخامته المفرطة:

- نحن لا نريد شرًا بهذه الأشياء الغريبة التي لا ندركها على كل حال، نحن فقط نريد إتمام أعمالنا التي تعطلها هذه الموجودات العجيبة كما تعلم.

- ماذا تعطل لكم بالضبط؟

- بالقرب منك هنا تقوم بعض الحفارات الخاصة بالشيخ نافع بالعمل في أرض المحمية، كانت الأمور تسير جيدًا حتى بدأت المعداتُ الحفرَ في مكان ما لكنها لم تستطع تنفيذ عملها، بدأت نوبات صرع تنتاب بعض العمال، كما تعطلت بعض المعدات بلا سبب ميكانيكي أو كهربائي واضح، وبدأ العمال يعتقدون بوجود أرواح شريرة وشياطين وجن وأشياء من هذا القبيل؛ ولم.....

قاطع ناصر اللواء فهمي بهدوء متسائلًا:

- وماذا غير ذلك؟

- ثمة مشروع آخر في الوادي الجديد، بعد الانتهاء من كافة أعمال البناء وتجهيز المكان وشراء كافة المعدات والماكينات لم نستطع تشغيلها حتى أن الخبير الصيني الذي جاء إلى مصر للقيام ببدء التشغيل من الشركة الموردة

للآلات لا يفهم ماذا حدث للآلات تحديدًا، حاول أكثر من مرة برمجة الماكينات كما كشفَ على كافة أجزائها ولم يجد أي عطل، سافر بعض مهندسينا إلى الشركة الصينية لمتابعة الأمر ولم نصل لجديد، حتى أشار علينا بعض الأصدقاء والذين تعرضوا أو اختبروا أمورًا مشابهة بالبحث عن....

- دجال؟! أليس كذلك؟!

- ليس بالضبط، فلنُسمِه خبيرًا في هذه الأمور.

كانت تلك هي المقابلة الأولى التي جمعت المهندس ناصر بالرجلين معًا، وبعد عدة مقابلات تلت هذه المقابلة وافق ناصر على القيام بالأمر بمساعدة صديقه الشيخ عيسى أيوب وخلال عدة أسابيع تمكن ناصر وعيسى من حل الأمر على أكمل وجه من خلال إجلاء هذه الكائنات عن مواقعها وتم استئناف العمل في المحمية منذ ذلك الحين وكذلك تم تشغيل الآلات الصينية بالوادي الجديد ولا زال المصنع يعمل بكامل طاقته منذ ذلك الحين أيضًا؛ وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي قبل فيها ناصر أموالا لم يستطع رفضها، فقد استلم من أحد رجال الشيخ نافع مبلغًا قيمته مليونا جنيهًا مصريًا وقد رفض الشيخ عيسى تقاضي أي جنيه منها في ذلك الحين، بينما احتفظ بها ناصر لبعض الوقت دون الإنفاق منها على نفسه وأسرته مفكرًا بمدى شرعيتها أو كونها حلالا وليس حرامًا حتى اضطر لاستخدامها والإنفاق منها عندما ازدادت نفقاته ونفقات أسرته.

كان المهندس صبري عبد اللطيف يتابع باهتمام ما يقوم به العمال في الكهف السري داخل المحمية التي تشغل مساحة كبيرة بالقرب من موقع شركة البترول بوادي جهنم، لا زال يتذكر عمله كأستاذ مساعد بكلية الهندسة جامعة القاهرة بقسم المواد، والذي تركه بعد عشر سنوات عندما عُرض عليه وظيفة الإشراف على هذا المشروع الجديد من نوعه بمنطقة الشرق الأوسط وإفريقيا مقابل راتب يتجاوز عشرين ألف دولار أمريكي شهريًا، كان العرض بمثابة حلم لا يجب التخلي عنه أو تركه ورفضه تحت أي ظرف أو مبرر، كان هذا الراتب الخيالي وقتها والذي كان مجرد بداية لراتب أكبر مقابل تنفيذ المشروع في أقرب وقت وإبقائه سريًا لأقصى درجة.

كان المشروع بمثابة طفرة كبيرة وشديدة الأهمية في مجالات التنقيب عن الطاقة، فالعالم يتجه الآن إلى البحث عن طاقة جديدة تناسب التطورات القادمة في المستقبل القريب والبحث عن بدائل أكثر أمانًا وأنظف كذلك من التنقيب عن البترول والغاز الطبيعي، فالعالم الآن يعمل أكثر على إحلال الطاقة النووية والكهرباء محل البنزين والسولار والغاز الطبيعي، وكان هناك معدنًا واحدًا يمكنه المساهمة في ذلك، هذا المعدن هو الليثيوم(**Li**)، فله من الخواص الفيزيقية والكيميائية ما يؤهله ليكون المعدن الأكثر طلبًا خلال الأعوام القادمة، فهو يستخدم في تبريد المفاعلات النووية، كما يدخل في تصنيع بعض الأسلحة النووية، وكذلك

تستخدم بعض مركبات الليثيوم في الطب النفسي كأدوية الاتزان واستقرار الحالة المزاجية والعصبية، والأكثر شيوعًا وأهمية هو استخدامه في بطاريات الليثيوم المستخدمة في الصناعات الكهربية كالسيارات والطائرات والصناعات الأخرى كالزجاج والسيراميك وغيرها؛ يعتقد الخبراء أن الليثيوم سيكون أغلى من الذهب والماس بسبب تلك الأهمية القصوى في شتى المجالات الصناعية والطبية؛ كان المهندس صبري متابعًا جيدًا لأبحاث الليثيوم واستخداماته ولم يكن يتصور أن يتم استخراجه من أرض مصر التي لم يكن يعرف أنها قد تحتوي على كميات اقتصادية منه، كان يعرف أن بلدان أمريكا الجنوبية هي أكثر البلدان التي تحتوي على مخزون كبير منه كتشيلي وبوليفيا والأرجنتين إلى جانب بلدان إستراليا والصين والهند بدرجة أقل، لكنه علمَ من القائمين على المشروع في المحمية بوادي جهنم أن لديهم خرائط جيولوجية تفيد بأن الليثيوم موجود بكميات اقتصادية مقبولة جدًا في المياه الجوفية الموجودة أسفل أجزاء معينة من أرض الوادي.

أشرف المهندس صبري على تجهيز وتشغيل كل الآلات والمعدات والطلمبات اللازمة لحفر مئات الأمتار أسفل أرض الوادي لاستخراج تلك المياه الجوفية المالحة وتمريرها عبر سلسلة من أحواض التبخير حيث يحدث تبخر لها في مدة طويلة نسبيًا وعندما يصل المحلول في الأحواض إلى تركيزات معينة يتم معالجتها وتصفيتها باستخدام كربونات الصوديوم؛ كان المشروع كبيرًا وطموحًا للغاية حيث أثار تطلعات المهندس صبري وطاقاته

العلمية والبحثية وكذلك إمكاناته الذهنية الكبيرة التي كان بحاجة لإخراجها إلى النور، كان أكثر ما أزعجه أن هذا المعدن الذي ساهم في إخراجه من الأرض لا يعود بالنفع على ذلك الوطن الذي احتضنه واكتنفه ورعاه حتى أصبح هذا الإنسان الذي هو عليه الآن، هو بالطبع يعلم أن" المحمية" وهي المشروع الاستثماري الصوري ربما يُدر بعض الأموال والدخل لبلده، لكن ماذا عن هذه الثروة المتمثلة في هذا المعدن النفيس والتي يعتقد أن مجموعة بعينها تستغل هذه الثروة وتحتكرها لنفسها دون الوطن وأهله، والذين لا يعيشون أفضل أحوالهم هذه الأيام.

كان صبري يجلس في غرفة مكتبه يتابع على شاشة كبيرة مراحل استخراج الليثيوم وتجفيفه قبل معالجته بينما يسترجع هذه الذكريات التي لم يمضِ عليها أكثر من بضعة شهور، اتكأ بظهره ورأسه على مقعده خلف المكتب الفخم- الذي أُعد من أجله بعدما انتهى من تشغيل كافة المعدات والآلات وانتهى كذلك من حفر البئر الذي يتم استخراج المياه الجوفية التي تحتوي على الليثيوم منه قبل شهرين تقريبًا- وأخذ يراجع ما قام به خلال سنة كاملة بينما يرفع رأسه للأعلى وكأنه يحاسب نفسه ويسألها هل أخطأ بترك عمله في الجامعة والتفرغ لهذا المشروع الذي تمنى لو كان مسئولا عنه أمام الحكومة المصرية والشعب المصري وليس مجموعة من لصوص الشعوب ومصاصي دماء الأوطان في أحلك أوقاتها؛ كان يعرف أنهم كانوا سيجدون غيره لتنفيذ المشروع لو رفض هو القيام بالأمر ولا يعرف هل كان لرفضه

عواقب ما لو رفض العرض فعلًا، ربما كانوا يعرفون أن عرضهم لا يمكن رفضه، ولو تم رفضه كانوا سيرفعون قيمة العرض حتى يوافق أو منحوه شيكًا فارغًا ليضع به ما يشاء من الأموال كَراتبٍ له أو بالأحرى سعرٍ يبيع به نفسه ووطنه وأهل وطنه؛ لم يكن من الصعب عليه معرفة تلك المعاناة المادية والنفسية التي يعيشها المواطن البسيط على أرض هذا الوطن العزيز، فالناس تتحدث عن المعاناة في الشوارع والبيوت ومحال العمل بل وحتى المسئولون والإعلاميون يتناولون الأمر سواء من قريب أو بعيد، فالأمور لا تخفى على أحدٍ في كل الأحوال.

لم يكن يعلم بأمر هؤلاء الشباب الذين تم إمساكهم في الكهف قبل أيام، لكنه لاحظ أن الحراسة حول المحمية وداخلها قد زادت هذه الأيام، وعندما سأل عن سبب ذلك أخبروه أن الأمر لدواعي أمنية، ابتسم عندها وقال أتمنى ألا يكون هناك خطرٌ على حياتي ثم انصرف عنهم؛ لم يهتم للأمر كثيرًا فهو كان يعمل يومين فقط أسبوعيًا بعدما بدأ إنتاج الليثيوم، أما غير ذلك فقد افتتح مكتبًا للتصميم الهندسي وضم إليه العديد من المهندسين الشباب وأشرف على تصاميمهم وأعمالهم قبل ستة أشهر.

.....

رغم أنه لم يكرر الأمر بعد ذلك عندما ساعد اللواء فهمي بدران في تحقيق أهدافه بتنفيذ هذه المشروعات التي كانت لتتوقف تمامًا لولا مساعدته ظل المهندس ناصر يلوم نفسه على ذلك، هو لم يكن دجالا بل استعان بربه وبآياته الكريمات على تلك الكائنات التي عطلت هذه المشروعات التي يمكنها أن تقدم الوظائف والدخل الكبير للمصريين، ولكنه ما كان يجب أن يأخذ هذه الأموال تحت أي مسمى كان، ولكن اللواء فهمي أقنعه أن هذا المال ضئيل جدًا بالنسبة لهذه الخدمة الجليلة التي قدمها لهؤلاء المستثمرين ورجال الأعمال، كان يشعر أن هذه الأموال ملعونة بطريقة أو أخرى، فقد شعر أنه مجرد تاجر يربح المال من أجل بضاعة ما، لكنه في نهاية المطاف قد تجاوز الأمر وتركه بلا رجعة بعد أن أنفق الكثير من هذه الأموال على احتياجاته، وكانت هذه الأموال بمثابة النكبة عليه فقد أراد أن يتزوج على زوجته وأم أولاده بل وأخبرها بالأمر وأنه سيسير فيه مهما حدث، وتزوج بالفعل من امرأة ما لكن زوجته التي طلبت الطلاق منه على إثر ذلك أغلقت بابها في وجهه وكذلك منعت أبناءه من مقابلته ورفعت عليه بعض القضايا التي لا يزال بعضها جاريًا حتى الآن، كما رفضت كل سبل الصلح فيما بينهما حتى يطلقَ زوجته الثانية، حاول بكل الطرق استمالتها وثنيها عن هذا الشرط دون نتيجة حتى اضطر إلى تطليق زوجته الثانية حرصًا على أبنائه مما أفقده الكثير من المال لمنح طليقته حقوقها كاملة دون خلافات تفضي إلى القضاء كذلك، خسر

بسبب ذلك المال والزوجة بل والراحة النفسية، فرغم كل هذه الخسائر لم ينصلح الحال مع زوجته وأم أبنائه التي لم تستطع أن تنسى أو تتجاهل أن زوجها قد تزوج عليها امرأة أخرى لبعض الشهور، ظلت علاقتهما فاترة حتى ضعفت أو تلاشت، وظل يحاول العودة رغم ذلك لأجل هذا الحب القديم لزوجته ولأجل حبه الدائم لأبنائه، لكن هيهات هيهات فقد ضُربت هذه العلاقة الوثيقة في حجم الثقة بينهما والإحساس بالأمان والدفء الذي فقدته زوجته التي لم تقتنع أبدًا أن زوجها لم يخالف مطلقًا شرع ربه، فقد تزوج كما يتزوج أي مسلم، ولم تفهم أو تدرك أنها ربما كانت سببًا في هذا الزواج الثاني بطريقة أو أخرى.

كان يشعر بالخوف والاضطراب معًا، كان يخشى أن يموت وحيدًا في هذه الصحراء، يخشى ألا يتسبب موته في حزن أحد عليه، يخشى أن يكون دخل الدنيا وخرج منها بلا أهل أو زوجة أو أبناء، كان يتمنى ألا تهزمه الحياة بأعبائها، كان قويًا صلبًا كالجبال في وقت ما لكنه الآن يشعر أنه هش لا يمكنه مقاومة شيء، كان لا يعرف ماذا يريد ولا يعتقد أن أمامه الكثير من الوقت للحياة والاستمتاع، كان يرى نفسه كساعة رملية لا يمر عليها الوقت إلا وتتناثر أجزاؤها، كان ممتلئًا بالفراغ النفسي والعاطفي، كان يشعر كل دقيقة بضعفه وعجزه عن مواجهة الحياة، كان كورقة شجر ذابلة تذروها رياح الخريف الخفيفة، كان يخشى شتاء الحياة القارص العاصف الذي لن يمكنه تحمل رياحه العاتية بعد الآن.

بعد موت ابن أخته مصطفى زيدان، تجددت أحزانه ومخاوفه، شعر أنه مسئول بطريقة ما عن موته والآن هو يشك في موته بصورة طبيعية، يريد أن يتحرى أكثر عن الأمر لكنه يعتقد أنه بات أضعف من الوقوف في وجه المشاكل المحتملة جراء هذا البحث والتحري، لا يعرف ماذا يفعل؛ بينما يواجه نفسه بضعفها وعجزها وخوفها واضطرابها وحيرتها وغيره من الانفعالات التي يدرك أنه يحتملها وأكثر طوال سنتين كاملتين تذكر مصطفى وآخر ما ذكره له عندما رأى ذلك الكهف الغريب الذي أكد له مصطفى أنه بداخل المحمية كما يشير كل شيء آخر، فربما كان ذلك الكهف وراء قيام مصطفى بتلك المغامرة مع رفاقه، وربما كانت هذه الأفاعي الغريبة تخرج منه، وربما لم تكن أفاعٍ كما اعتقد قبل ذلك، اعتقد أن هذه الأفاعي ليست إلا بعض الجن قد خرج لسبب ما، هل خشيَت شيئًا؟ هل تريد شيئًا؟ هل تحمل رسالة ما؟ لا يعرف لكنه يعتقد أن ثمة شخصًا يعرف الكثير أو حتى القليل عن الأمر، هذا الشخص ربما هو ذلك البَدوي موسى صبيح، لكن كيف يمكنه أن يجعله يتحدث ويخبره ما يعرفه عن هذه المحمية وذلك الكهف العجيب؟ لكن ماذا عن المحمية؟ ماذا يفعلون بداخلها؟ إنهم دائمًا ما يتحدثون عن زراعة نباتات برية نادرة واقتناء حيوانات وجوارح عجيبة وحفلات صيد وسباق سيارات وخيول لكن هل هذا كل شيء؟ أم أن هذه المحمية هي قبعة الساحر التي يخفي داخلها العديد من الحِيَل.

الفصل الحادي عشر

البحث عن الـحـــقـيـــقة

الحقيقة في هذا العالم هي بمثابة الكنز الدفين الذي لا يصل إليه إلا صاحب النصيب والحظ العظيم، حتى أن بعض الأمور في هذا العالم تبقى مدفونة للأبد لا يصل لحقيقتها أحد سواء أكانت هذه الحقيقة تبلغ من الأهمية الشيء الكبير أم لا، وبعض الأمور يعرفها بعض خواص الناس فقط، أم إذا وجدت أن عوام الناس يعرفون شيئًا ما ويوقنون بأنه حقيقي فتأكد أنها ليست بحقيقة بل أكذوبة أو وهم كبير يعيش الناس فيه بهدف إبعادهم عن الحقيقة والتي هي ربما عكس ما يعتقدونه تمامًا؛ ولأن الحقيقة لا يدركها الكثيرون تجد أن المستفيدين من طمسها يدفعون كل ما يستطيعون لأجل تضليل الناس عنها، أو التسفيه منها ومن الموجهين إليها والحريصين عليها، فالحقيقة كانت أن إخوة يوسف أرادوا إلقاءه بالجب أما التضليل والخداع كان أنهم أرادوا أن يخرج معهم ليرتع ويلعب، الحقيقة أن لا أحد يروج لشيء حقيقي تمامًا، ففرعون مصر لم يرد أن يحفظ لأهل مصر دينهم القويم بل أراد أن يصدهم عن دين الله حفاظًا على عرشه ومكانته بين شعبه، والحقيقة أن موسى عليه السلام لم يرد نشر الفساد في أرض مصر بل أراد الإصلاح ودعوة الناس إلى أن يسمعوا كلام الله.

الحقيقة دائمًا ما تطلبت وجود فطرة سليمة لدى الإنسان مع عقل واعٍ وضمير حر غير مزيف، ومنطق صحيح رشيد لا يتأثر بالهوى واستمالة القلوب بالملذات والأموال والأملاك، فكل إنسان سليم الفطرة والعقل، حر الضمير يمكنه معرفة الحقيقة وإدراك الخرافات والأوهام والشائعات المراد ترسيخها، وربما كانت هذه الأمور التي بدأ أهل المنطق والعلم والدين ينتبهون إليها كوسيلة لسياسة الناس وقيادتهم والسيطرة عليهم، فليس من السهولة بمكان السيطرة على مجموعة من الناس مكونة من عشرة أفراد، فما بالك بعشرات ومئات وآلاف وملايين، ولا سيما لو كانوا من المتعلمين أو المثقفين وأصحاب الفكر والرأي، لذلك ساد الجهل بعض المجتمعات غصبًا وطواعية على حدٍ سواء، وسادت في فترات تاريخية معروفة الضلالات والخزعبلات والأساطير كالعنقاء والغيلان والأقزام المفترسين والتنانين التي تنفث النيران، فالجهل والخوف والقهر ما هي إلا أساليب وأدوات لقيادة الناس أو سياستهم وإحكام القبضة الفكرية الواحدة عليهم، أما الحقيقة فتُقهر مع المقهورين وتُمحى آثارها وشواهدها دائمًا بفعل فاعل أو اثنين أو أكثر.

تلك الحقيقة هي ما كان يبحث عنه المهندس ناصر الديب الذي جلس في مكتبه يفكر كيف يبدأ في رحلة البحث عن الحقيقة، كيف يمكنه دفع أو حث موسى صبيح على الإدلاء بكل ما يعرف عن المحمية ومقتل مصطفى ورفاقه، ماذا عليه أن يفعل بالضبط ليجبره على ذلك، بل وأين يمكنه أن

ينفرد به ليدفعه دفعًا للحديث عن هذا الأمر، انتزعه من أفكاره صوت طرقات على باب غرفة مكتبه، فأذن للقادم بالدخول، كان القادم هو صابر حنفي عامل المغسلة بالموقع والذي يعرفه ناصر بالطبع، ما أن رأه حتى تعجب من زيارته له للمرة الأولى في مكتبه فاعتقد أن لديه شكوى ما يريد أن يخبره بها، دعاه إلى الجلوس ثم قال متعجبًا:

- لعله خير يا عم صابر، هل هناك ما يزعجك هنا في الموقع مؤخرًا؟!

- هذه الحياة لا تكف عن الإزعاج يا باشمهندس، لَعَلِي اعتدتها واعتادتني.

- جيد، فما الأمر إذن؟

سكت الرجل هنيهة ثم قال بترددٍ كبير تعجب له المهندس ناصر:

- إنني... أحمل لك رسالة من... من مصطفى زيدان.

ازداد تعجب ناصر واتسعت حدقتاه أكثر ثم ترك مقعده خلف المكتب واقترب من عم صابر وقال متعجلًا:

- وهل كنت تعرفه؟ متى ترك لك هذه الرسالة؟ وأين هي؟

- هل تريدني أن أقف إذن احترامًا لقيامك من مقعدك؟

- ماذا؟ لا، أنا فقط أريد أن أرى هذه الرسالة.

- حسنًا، اجلس، فهي ليست رسالة مكتوبة على كل حال.

عاد المهندس ناصر إلى مكتبه وجلس إليه محاولًا تمالك رغبته الكبيرة في معرفة أي تفصيلة ولو بسيطة عن مقتل ابن أخته وأصدقائه، فأردف صابر حنفي قائلًا:

- لم أعرفه معرفة طويلة، فقط رأيته مرة أو مرتين في صالة الترفيه وتحدثنا لبعض الوقت، كان شابًا طيبًا ومخلصًا، أعتقد أن هذه الحياة لا تمتلك الكثيرين من أمثاله.

- وهل ترك رسالته التي تتحدث عنها خلال تلك المرة التي تحدثتما فيها؟

- لا يا سيدي.

تعجب ناصر من كلمات الرجل التي بدت غامضة أو غير مفهومة فقال بارتياب:

- إذن كيف...؟

- هذه الرسالة التي أقصدها كانت في منامي يا باشمهندس ناصر.

- ماذا؟ ماذا تقصد يا صابر؟

- طوال أسبوع وهذا الشاب مصطفى لا ينفك يأتيني في منامي عند الفجر ويخبرني برسالة واحدة أرادني أن أنقلها إليك، ولا أعرف لمَ اختارني لذلك أو ماذا يجعلك تصدق ما سأقوله لك على لسانه؟!

سأله ناصر بفضول كبير:

- ما الذي أرادك أن تخبرني به؟

- إنه أرادني أن أبلغك أن الموقع مقبل على كارثة أو أزمة كبيرة...

قاطعه ناصر بغضب مستتر:

- أي كارثة يا رجل؟

- يقول أن الثعابين والأفاعي ستملأ الموقع وسوف تتسبب في أذى كبير لكل من يقيم هنا.

اغتاظ ناصر وقال بحنق وجزع:

- ثعابين وأفاعٍ مرة أخرى، لقد سئمت هذه الأفاعي يا رجل.

- هذه الأفاعي قادمة من هناك.

أشار صابر إلى المحمية ثم أردف:

- هذه الأفاعي سواء كانت بيضاء أو سوداء أو خضراء ما هي إلا أنواع وأقوام مختلفة من الجن، تسكن هذا الكهف هناك في تلك المحمية والذي سبق أن أخبرك عنه مصطفى قبل وفاته، أليس كذلك؟

- بلى....

دون شعور أجاب ناصر الذي أدرك بعد ثوان قليلة أن صابر يخبره الحقيقة والدليل على ذلك حديثه عن الكهف وقوله أن مصطفى أخبر ناصر نفسه عنه قبل وفاته، وكان ذلك خلال تلك المكالمة الأخيرة التي جمعته بمصطفى والتي لم يسمعها أو يعرف عنها صابر حنفي بالطبع، وهذا يعني أن مصطفى من أخبره بذلك لتكون علامة على صدق حديثه.

سرح ناصر في تلك الذكرى حتى نسى تمامًا صابر الذي قام من مقعده فانتبه له ناصر عند ذلك، وقبل أن يغادر مكتب ناصر قال له:

- في تلك الرؤيا طلب مني أن أنظر إلى كهف كبير كأنه مغارة ما، رأيتُ بعض الناس يستخرجون مياه طينية كثيرة من بئر عميق ثم يغربلونها بطريقة ما ويحصلون على شيء كالذهب ويبدو أنهم يفعلون ذلك في المكان الخطأ.

- هذا ما كنت أفكر به خلال الأيام الماضية، لقد بدأتُ هذا الأمر قبل سنتين يا صابر وأعتقد أن القدر يريدني أن أنهيه كما بدأته لكنني ربما أحتاج لمساعدتك يا رجل.

نظر له صابر نظرة ذات معنى توحي بأن كلًا منهما يفهم الآخر جيدًا ثم قال بهدوء:

- أعرف ما تفكر به يا سيدي، أعتقد أنني مستعدٌ لذلك.

.....

كان اللواء فهمي بدران يشعر بالحنق والغضب الكبيرين بسبب هذا المقال الإلكتروني الذي ملأ كل الصفحات الإلكترونية على وسائل التواصل المختلفة والذي تحدث عن طبيعة الاستثمار الأجنبي في مصر الفترة القادمة والذي يتم من خلاله حصول بعض المستثمرين المصريين أو الأجانب على امتياز بالاستفادة الكاملة أو الجزئية بمساحات كبيرة من الأراضي المصرية سواء الساحلية لاستغلالها سياحيًا أو الصحراوية لاستغلالها في بناء المشروعات الصناعية أو المدن السكنية أو غيرها، لم ينتقد المقال الحكومة المصرية لذلك باعتبارها يجب أن تكون شريكًا

إستراتيجيًا للمستثمر أيًا كانت شروطه لتنفيذ هذه الاستثمارات بل وأن الحكومة هي من يجب أن تملي شروطها في هذا الصدد، كما تساءل الكاتب في مقاله ماذا لو ظهر مستقبلا احتواء هذه الامتيازات على ثروات باطنية كالفحم والبترول والغاز الطبيعي والذهب وغيرها، هل لدى الحكومة ضمانات ضرورية تلزم المستثمر برد الامتياز وتعويضه بغيره وتجبره على عدم الانتفاع من هذه الثروات القومية، هل تلتزم الحكومة بالحفاظ على مقدرات الوطن وثرواته؟ لقد أوضح الكاتب أنه إنما أراد التنبيه للأمر في حالة حدوثه بحيث يجب أن يكون موقف الحكومة واضحًا وقويًا حينها، وأشار إلى قيام الحكومة بهدم كافة الأبنية والعقارات التي تعوق مشاريع البنية التحتية كالطرق والكباري لأجل المصلحة العامة للمواطنين، فإنها كذلك ينبغي أن تقوم بتأمين هذه الثروات في حالة وجودها في أي امتيازات تطرحها الدولة للاستثمار داخليًا أو خارجيًا؛ ولم يفت الكاتب الذي لم يذكر اسمه على المقال أن الحكومة يجب أن تلتزم بالشفافية تجاه هذه المزايدات والمشروعات حتى لا يستغل المغرضون الأمر لإثارة الفوضى وتهييج الجماهير- والتي هي على درجة كبيرة من الوعي- بالقول أن الحكومة إنما تبيع الأراضي المصرية بسبب تفاقم الأزمات الاقتصادية.

كان المقال شافيًا كافيًا واضحًا وجريئًا كذلك ليتناول هذه القضية التي تناولتها معظم الصحف والقنوات الإخبارية والصفحات الإلكترونية سواء باعتباره متنفسًا اقتصاديًا كبيرًا أو حلا أخيرًا أمام الحكومة المصرية في

وقت تواجه فيه الدولة تحديات اقتصادية كبيرة وتغيرات ملحوظة في أسواق التجارة والعملات العالمية.

ما أثار غضب اللواء فهمي بدران وجعله يشعر بالذعر أنه اعتقد أن كاتب المقال ربما يمتلك معلومات حول مشروع الليثيوم الخاص به وبشركائه، وربما في مقال قادم قد يتحدث عن هذا الأمر، أخذ يفكر هل هناك جاسوس ما يعمل بالمشروع وقد تحدث إلى هذا الصحفي أو الكاتب أيًا كانت وظيفته أو أغراضه ودوافعه، بالطبع لم تتوقف المكالمات الهاتفية من شركائه طوال اليوم عندما قرأوا أو سمعوا عن هذا المقال الذي هز أرجاء المحروسة، حاول طمئنتهم بالقول أن الكاتب ربما تحدث عن أمر يتداوله الناس جميعًا هذه الأيام منذ حديث رئيس الحكومة عن الأمر وهذا طبيعي أن يتحدث الناس عن أمور وتخوفات وتطلعات كهذه في ظل ركود اقتصادي وتضخم غير مسبوق، كما أن" الترند أو الرائج" هذه الأيام الحديث حول هذه المشروعات الاستثمارية التي يأمل الناس من تنفيذها خيرًا، كما أخبرهم أن الكاتب ربما لا يقصد الإشارة إلى مشروعهم مطلقًا وإلا لكان تحدث عنه باعتباره سبقًا صحفيًا أو قنبلة إعلامية كما يسمونها في الصحافة العربية.

رغم ذلك فقد تحدث اللواء فهمي بدران إلى الشيخ نافع غراب ينبهه إلى ضرورة مراقبة كل العاملين داخل المحمية جيدًا أثناء العمل والراحة والإجازات كذلك إن أمكن خوفًا من وجود جاسوس يُسرب أخبارًا أو معلومات عن المشروع، والتأكد من عدم استخدام الهواتف المحمولة

الذكية داخل الكهف حتى لا يتم تصوير أو تسجيل أي معلومات حول المشروع.

.....

عند عودتهما من البريمة رأى المهندسان طاهر ومأمون الشيخ موسى صبيح يسير أمامهما على جانب الطريق إلى المعسكر، توقف مأمون بالسيارة بجواره ثم دعاه طاهر إلى ركوب السيارة لتوصيله أينما يشاء، رفض موسى في البداية لولا أن مأمون أصر عليه أن يركب السيارة، ركبَ معهما ولم يتحدث حتى سأله طاهر:

- كيف حالك يا شيخ موسى؟ لم أعد أراك كثيرًا هذه الأيام.

- نعم، أنا... أسهر كثيرًا ليلًا مما يجبرني على النوم معظم أوقات النهار.

ابتسم مأمون بلؤم ثم قال:

- ربما يهرب من لقاء المهندس ناصر نهارًا يا باشمهندس طاهر.

ابتسم طاهر ثم سأله بهدوء:

- أحقًا يا شيخ موسى؟

- نحن- البدو- لا نخشى إلا الله يا باشمهندس مأمون.

- نعرف ذلك بالطبع يا شيخ موسى، المهندس مأمون يمازحك فقط يا شيخ، فلا تغضب.

- لا عليكما.

لم ينتبه الشيخ موسى إلى أين يذهبان به حتى توقفت السيارة في مكان لم ينتبه له جيدًا بسبب تركيزه في الحديث معهما، كما أن الساعة كانت تشير إلى الخامسة والنصف مساءً حيث أوشكت الشمس على المغيب، نظر موسى يمينًا ويسارًا حين توقفت سيارتهما وسأل بخوف وترقب:

- لمَ توقفتما هنا؟

ابتسم مأمون نفس ابتسامته الماكرة وقال:

- انزل يا شيخ موسى، ألم تخبرنا أنك لا تخشى أحدًا، فأحدهم يود مقابلتك على انفراد هنا.

في هذه اللحظة ظهر المهندس ناصر الديب فجأة وقال بحزمٍ:

- أهلًا يا شيخ موسى، ما لكَ مختفٍ هذه الأيام يا رجل؟

كان موسى مصدومًا متعجبًا، بل وشعر بالذعر عندما تحركت السيارة بمأمون وطاهر وتركته وحيدًا مع ناصر الذي دبر هذا اللقاء بالاتفاق مع طاهر ومأمون لينفرد بلقاء موسى الذي قال مذعورًا:

- أين ذهبا؟ وما....ماذا تريد مني؟!

رغم حلول الظلام فقد رأى موسى علامات الصرامة والغضب على وجه المهندس ناصر الذي قال:

- انظر يا موسى جيدًا حيث نقف، ألا تتذكر أننا وقفنا هنا قبل أسبوعين أو أكثر قليلًا بينما نجمع أشلاء مصطفى ورفاقه؟

كانت عينا ناصر محمرتين حزنًا وغضبًا بينما يتذكر هذا الموقف منذ مدة ليست بطويلة، وبنظرة تتقد شرًا وألمًا أردف قائلا:

- لدي بعض الأسئلة لك يا موسى وأعرف أن لديك إجاباتها.....

- وكيف عرفت أنني أملك إجاباتها؟!

- لأنني أعرف أنك من أبلغتَ حراس المحمية بقدوم مصطفى ورفاقه إليهم.

شعر موسى بالصدمة ونظر لناصر تلك النظرة المذعورة التي عرف منها هذا الأخير أن استنتاجه في محله، فأردف مرة أخرى:

- أنا أعرف أن يديك ليستا ملطختين بدمائهم، فلم تكن تعرف ماذا سيحدث لهم، أليس كذلك؟!

ظهر بعض الحزن على وجه موسى الذي اكتفى بالصمت ولم ينطق فأكمل ناصر:

- لقد أطلقوا كلابهم على هؤلاء الشباب حتى مزقَت أجسادهم ثم نقلوهم إلى هنا تمامًا وأبلغوك عن هذا المكان....

لم يحتمل الشيخ موسى الأمر فوضع يديه على وجهه وأخذ يبكي في مرارة وأسى، وكأنه استعاد الآن فقط تلك الذكرى القاسية التي يحاول منذ حدوثها أن ينساها ويمحوها من ذاكرته لكنه لا يستطيع، لقد كان يفر نهارًا من تلك الذكرى لا من المهندس ناصر كما اعتقدَ مأمون.

- لا أحتاج لإجاباتك الآن يا موسى، فدموعك وسكوتك أجابا عن كل ما أردتُ معرفته، بقى أمر أخير ينبغي أن تعرفه، هذا الوادي أصبح معرضًا للتهديد بسبب ما يجري هناك في المحمية.

جفف موسى دموعه وقال في قلقٍ:

- تهديد؟! ماذا تعني بذلك؟

- هذه الأفاعي التي انطلقت في الوادي ما هي إلا أقوام من الجن وقد هربت من المحمية بسبب استيائها مما يحدث هناك، وهذا ما قُلتَه أنت لي قبل عدة أيام.

- وماذا يحدث هناك؟

- أعتقد أنك تعرف أكثر مني يا موسى بما أنك تعمل معهم.

- أنا فقط أنفذ أوامر الشيخ غراب ولا أعرف الكثير عن هذا الكهف الذي يحفرون بداخله هناك، أعرف أنهم يستخرجون معدنٍ ما وينقلونه عند الفجر في نهاية كل أسبوع من خلال سيارات الشيخ غراب.

انتبه ناصر جيدًا لهذه الكلمات التي قالها موسى فقال:

- لا بد أن تلك السيارات هي التي رآها مصطفى وأصحابه ودفعتهم إلى الذهاب إلى المحمية لاستكشاف ما يحدث هناك.

- ماذا؟

- هذا لا يهم الآن، المهم أنني أخبرتك عن الأمر وقد تأكدت بنفسي منه، عليك أن تُعلم الشيخ غراب وتخبره أن عليه إغلاق هذا المشروع وهدم

الكهف بأكمله إن استطاع وإلا... فإن تلك الأفاعي سوف تملأ الوادي وتؤذي كل من يقف أمامها، وعندها سيكون هو وحده المسئول عن هذه الخسائر التي لا يمكن أن يتوقع حجمها أحد.

- لكن...

- ماذا؟

- لا يمكنني التحدث معه عن هذا الأمر.

- لمَ؟

- إنه يشك بوجود جاسوس تحدث عن المشروع مع الصحفيين أو ما شابه، وإذا ما أخبرتُه بمعرفتك بأمر المشروع والكهف فإنني سأكون في عداد الموتى.

- إننا على وشك حدوث كارثة يا رجل، ما الذي تفكر به أنت؟!

- اعذرني يا باشمهندس، لكنني لا أستطيع القيام بذلك.

سكت ناصر قليلًا مفكرًا في حلٍ ما لهذه المعضلة ثم قال:

- حسنًا يا موسى لكن أخبرني أمرًا واحدًا، هل يمكنك دخول ذلك الكهف؟

- نعم لكن لمَ؟

- لو حدث ما أخبرتك به وملأت الأفاعي الوادي ورفض هذا الغراب إغلاق مشروعه اللعين، ربما لن يكون هناك حل بدونك يا رجل.

تعجب موسى من كلام ناصر الأخير ثم تمتم بقلق:

- لا أفهم.

- لا يهم ذلك الآن.

بعد دقائق قليلة من انتهاء محادثتهما عادت السيارة مرة أخرى مع طاهر ومأمون في الموعد الذي اتفقا عليه مع المهندس ناصر الذي نظر إلى موسى وقال بلهجة صارمة:

- هيا بنا الآن، ولا أعتقد أنك قد تخبر أحدًا عن لقائنا هذا وإلا كنت جاسوسًا خائنًا.

نظر إليه موسى في قلق متزايد وكأنه يخشى أن ينتبه لغيابه عن البريمة أو المعسكر أحدٌ أو يراه واقفًا لمدة طويلة مع المهندس ناصر فيشُك به وربما يشي به لدى الشيخ غراب.

ركب ناصر وموسى السيارة مع مأمون وطاهر وتحركوا إلى المعسكر، وكان كل ما يشغل بال ناصر هو كيف يمكنه إيقاف هذا المشروع قبل فوات الأوان.

****

الفصل الثاني عشر

نـــــفـــرٌ من الجـــــن

كان الوقت يمر سريعًا دون أن يعرف ناصر ماذا يجب عليه أن يفعل، كانت الأمور واضحة تمامًا بالنسبة إليه بعد كل ما عرفه خلال اليومين الماضيين، هذه الأفاعي ليست إلا بعض الجن يريدون أن يرهبوا الجميع أو ربما يرسلون رسالة جلية أن بإمكانهم مهاجمة الموقع وربما أرض الوادي كله بأعداد أكثر بكثير ولا يمكن أن يصدها أحد، لا بد أنهم ضاقوا ذرعًا بما يحدث في الوادي أو المحمية بصفة خاصة؛ كذلك عرف ناصر أن ابن أخته مصطفى قد قام بمخاطرة كبيرة عندما دخل تلك المحمية مع رفاقه ولا بد أنه عرف ما لم يكن عليه معرفته وهو ما دعاهم إلى قتله بهذه الطريقة، هو يعرف أنهم قتلوه دون معرفة عن صِلتِه بناصر، وربما حتى لو عرفوا ذلك ما كانوا ليدعوه يتحدث بما رأى وعرف.

لا زال يتذكر مكالمة الشيخ غراب له في اليوم التالي لعثورهم على جثث الفتيان الأربعة بعد أن علم الجميع بصلته بمصطفى، فقد قام بتعزيته بنفسه بل وأخبره أنه سيستخدم كل صِلاته كي يتمكنوا من دفنه في أسرع وقت من خلال تعجيل كل الإجراءات في المستشفى المركزي بالمحافظة والتي لديه فيها نفوذ كبير.

يعرف أنه يجب أن يعرف أولًا ماذا يريد هؤلاء النفر من الجن؟ ماذا يزعجهم في هذه المحمية؟ وماذا لو لم يغادرها هؤلاء المستثمرون العرب؟ يجب أن يفهم الكثير من الأمور قبل أن يواجه الشيخ نافع غراب واللواء فهمي بدران بأمر هؤلاء النفر من الجن، أرسل إلى صابر حنفي كي يحضرَ إلى مكتبه في العاشرة مساءً أي بعد صلاة العشاء بساعتين تقريبًا، جاءه صابر حنفي في الموعد المحدد في مكتبه، قام ناصر مرحبًا بالرجل ثم أغلق المكتب من الداخل وأمره أن يجلس أمامه مباشرة على مقعدٍ ما ثم جلس هو على المقعد المقابل وبدأ يتلو بعض آيات قرآنية من هاتفه الجوال ثم يدعو الله بأدعية معينة كان يتمتمها بتضرع ورجاء واضحين، ثم يناظر صابر بين الحين والآخر، كان صابر مغلق العينين، مضموم الذراعين إلى جانبيه؛ كان يبدو مذعورًا لكن ناصر أعاد عليه الآيات والأدعية أكثر من مرة حتى احمر وجهه وانتفخت وجنتاه وقال بصوت خفيض مبحوح:

- يمكنني أن أرى بعض الأجسام التي لا تشبه أجسامنا كثيرًا.

قال ناصر مستفهمًا:

- صفهم لي يا صابر، هل تراهم جيدًا؟

- نعم، ليسوا جميعًا على نفس الهيئة، أرى بعضهم يطيرون في الهواء، لديهم أجنحة كبيرة نسبيًا...

توقف صابر قليلًا ثم قال باستنكار وخوف:

- يا إلهي، إن منهم حيات كالتي رأينا مثلها طوال الشهر الماضي.

لم يتعجب ناصر الذي قال بثبات:

- لقد كنت أعرف ذلك بالفعل، ماذا يمكنك أن ترى أيضًا؟

- أرى بعض الأقزام، تشبه هيئتهم هيئة البشر لكنهم أكثر قبحًا، وكذلك بعض الحيوانات تشبه الكلاب السوداء لكنها أكبر حجمًا.

- حسنًا، هل يرونَك؟

- إنهم... يقتربون أكثر، كانوا ينظرون من خلف بعض التلال والآن يقتربون أكثر، إنهم... ينزلون الآن.

شعر ناصر بخوف صابر فقال له بإصرار وتحدٍ:

- اقترب منهم ولا تخف يا صابر، يجب أن نتحدث إليهم.

أخذ ناصر يدعو ويصلي إلى الله بتضرع ورجاء بينما يتمتم ببعض الآيات الكريمات مثل" وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون"، " وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك"، " ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس"، " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الإنس والجن"، " ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه"، " وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن"، " ولقد علمت الجِنة إنهم لمحضرون".

استمر ناصر في تلاوة المزيد من الآيات والأدعية حتى قاطعه صابر قائلًا:

- لقد أصبحوا أمامي مباشرة، يقولون أنهم يعرفونك جيدًا.

تعجب ناصر وقال مسرعًا:

- كيف؟

بعد لحظات من سؤاله أجابه صابر:

- يقولون أنك كنت هنا مع شخص ما قبل عامين تقريبًا.

حاول ناصر أن يتذكر ثم قال متعجبًا:

- يا إلهي، لم أعتقد أنهم لا زالوا يتذكرون، لقد كان الشيخ عيسى أيوب وكنتُ مساعدًا له حينها عندما استعان بنا اللواء فهمي بدران لإجلائهم عن المنطقة، لكن ماذا حدث بعدها؟ ولمَ عادوا؟ وما الذي يزعجهم الآن؟

عمّ الصمت لحظات طويلة انزعج لطولها ناصر الذي همّ بقول شيء ما قبل أن يوقفه صوت صابر يقول:

- يقول زعيمهم أنهم أخلوا ذلك المكان الذي أقاموا فيه مشروعهم لكنهم حفروا باطن الأرض وأزعجوا بعض أقوامهم بمعداتهم الثقيلة التي لا تتوقف عن العمل أثناء الليل كما أنهم لوّثوا أطعمتهم ومشاربهم بمخلفاتهم السامة...

- لكن لمَ لا يتركون لهم هذا الكهف أو المكان كله؟!

- يقول زعيمهم أن هذه البقعة من الأرض هي موطنهم منذ آلاف السنين، أما عن الكهف فهو مقر حكم زعيمهم منذ مئات السنين، ولن يتأخروا عن الموت دفاعًا عنه بل...

- ماذا أيضًا؟

سكت صابر هنيهة قصيرة قبل أن يكمل قائلًا بلهجة تحذيرية:
- يقول الزعيم أن لديهم أسبوع واحد فقط كمهلة أخيرة قبل أن يزحفَ كل أقوام الجن الذين يعيشون في وادي جهنم ويملأوا كل صعيد وكثيب وطريق في الوادي وعندها لن يهنأَ أحدٌ بالعيش فيه.
- لكن....
- لقد... غادروا يا سيدي.
بعد لحظات أفاق صابر من هذا الحُلم الذي عاشه بكل تفاصيله، كانت تجربة جديدة عليه كليًا، لم يعتقد أن بإمكانه رؤية ذلك العالم الخفي، لكن ناصر أدرك أن الله قد حباه- صابر- بهذه المنحة كما حبا مصطفى بها كذلك من قبل؛ عرف ناصر أنه لا بد من هدم ذلك المشروع أيًا كان هو في ذلك الكهف الغامض.
والآن بات عليه أن يتصل بالشيخ نافع غراب ليخبره بالخطر القادم بقوة خلال أسبوعٍ واحد من الآن.

.....

لم يستطع الشيخ غراب منع نفسه من هذا القلق البالغ الذي اعتراها منذ أخبره المهندس ناصر بأمر هؤلاء النفر من الجن الذين ينزعجون بسبب ما يجري في ذلك الكهف والذي لا يعلمه ناصر على وجه الدقة، ما كان من الشيخ غراب إلا أن أخرج هاتفه الشخصي من جيب جلبابه الصوفي الفاخر الذي يحافظ على ارتدائه وغيره من الجلابيب الثمينة الفاخرة، فلم

يكن محبذًا لارتداء البزات الرسمية الأنيقة التي كانت تقيد حريته برابطات العنق الخانقة التي سيتوجب عليه ارتداؤها في حال آثر مثل هذه البزات عن جلابيبه الفاخرة التي اعتاد عليها طوال خمسين سنة، لقد كانت هذه الجلابيب تكلفُه أكثر من البزات على كل حال لذا ما كان لأحدٍ أن يتهمه بالبخل على كل حال؛ بسرعة راح يبحث عن رقم اللواء فهمي ثم اتصل به وانتظر لحظات قبل أن يسمع صوته يقول:

- مرحبًا بشيخ الوادي، لقد كنتُ على وشك الاتصال بك.

اندهش الشيخ نافع من كلامه واعتقد أن هناك أمرًا كبيرًا يقترب في أهميته مما اتصل به لأجله، فقال بتعجب:

- هل ثمة خطب ما؟!

- لا عليك، أخبرني أولًا لم اتصلتَ بي؟

راح الشيخ يقص على اللواء فهمي كل ما دار بينه وبين المهندس ناصر قبل دقائق قليلة بنبرة قلقة متوترة لكنه تفاجأ برد اللواء فهمي بدران الذي ضحك ضحكة ساخرة أدهشت الشيخ غراب، قال اللواء فهمي على إثرها:

- هل تصدق هذا الكلام الفارغ يا شيخ غراب؟ لقد بدأنا تنفيذ المشروع قبل سنتين تقريبًا دون أن يحدث شيء، بل وبمساعدة ناصر هذا نفسه وصديقه المقرب، ربما أراد ناصر الانتقام منا بسبب ما حدث لابن أخته الذي نهشته كلابك قبل أيام....

- لكنه لا يعرف بذلك كما لا يعرف بأمر المشروع على وجه التحديد.
- وما أدراك يا رجل؟ لقد كنت أود الاتصال بك قبل مكالمتك هذه لأخبرك أنني عرفتُ ذلك الجاسوس الذي أخرج سر مشروعنا لذلك الصحفي وإنني بصدد التعامل معه وجعله يدفع ثمن خيانته.

كان الأمر مفاجئًا للشيخ غراب الذي تساءل بقلق:

- ومن هو ذاك الخائن؟!
- إنه المهندس صبري، القائم على متابعة مشروع الليثيوم.
- يا إلهي، لكن... كيف عرفتَ بأمره؟
- لقد وجدتُ ذلك الصحفي واشتريتُه بكل ما لديه من معلومات وعرفت منه كيف حصل عليها بالطبع.
- وماذا عن صبري هذا؟
- ستعرف قريبًا جدًا، والآن لا تقلق وباشر مشروعنا وأموالنا التي لديكَ بكل أمان.
- لكن... ماذا عن ناصر أيضًا؟!
- لا يمكن تركه يعيش بعد أن كشف أمر مشروعنا، يجب أن يموت يا نافع.
- لكنني...
- لا يمكن تأخير الأمر يا رجل.
- ألا يمكن أن يكون صادقا بأمر الجن هؤلاء؟!

- لا تصدق هذا الهراء ونفذ ما أمرتك به يا غراب.

انتهت المكالمة على ذلك بعدما أغلق اللواء فهمي بدران هاتفه فجأة في وجه الشيخ غراب الذي لم يكن لديه أي خيار آخر سوى تنفيذ هذا الأمر... وبسرعة.

.....

كان الأسبوع تمر أيامه سريعًا بينما ينتظر ناصر في قلق وترقب اتصال الشيخ غراب يخبره أن المشروع سيغلق بلا رجعة، لكن ما ورده كان اتصال آخر قبل ثلاثة أيام من نهاية المهلة التي حددها زعيم الجن، لم يكن المتصل سوى موسى صبيح يخبره أن الشيخ غراب يخطط لقتله خلال أيام قليلة، ربما في وادي جهنم، أو أثناء عودته إلى بيته لقضاء إجازته؛ استنكر ناصر الأمر في البداية فلم يتوقع ذلك من الشيخ غراب الذي أراد مساعدته قبل أن ينفذ الجن تهديدهم في الوادي لكن موسى أخبره أنهم قتلوا ذلك الجاسوس الذي سبق وأخبره عنه في ذلك المكان حيث عثروا على جثة مصطفى قبل أيام، وأن ذلك الجاسوس لم يكن سوى المهندس صبري الذي قام بتنفيذ مشروعهم داخل الكهف، ذلك المهندس الذي أحرقوا شقته بعد أن قتلوه وعائلته فيها ليضمنوا إتلاف كل محتويات شقته من هواتف وأجهزة حاسوب وأبحاث وأوراق خاصة وغيرها؛ كان الأمر بمثابة صدمة بالنسبة لناصر الذي شعر بالخوف الآن فقط؛ أغلق موسى المكالمة وراح يمسح كل تفاصيلها من هاتفه لئلا يبحث فيه أحد.

لم يشك ناصر في حديث موسى عندما أخبره عما حدث لذلك الجاسوس الذي أدرك خطأه في تنفيذ ذلك المشروع الذي أضاع على البلد وأهلها ثروات وموارد ضخمة، لأنه عاد لرشده وتمرد على ذنبه وخطأه أصبح جاسوسًا وخائنًا للأمانة واستحق القتل والحرق، بل ليس وحده، إنما هو وأسرته على حدٍ سواء.

لم ينم ناصر طوال هذه الليلة، عاد إلى التفكير بقوة وسرعة من جديد، كان يفكر في كل ما لديه من معلومات حول هذه المحمية، لقد عرف موعد خروج ذلك الشيء الذي يستخرجونه من الكهف، لقد أخبره موسى قبل ذلك بهذا، يجب أن يستغل تلك المعلومة لكن كيف؟ فجأة قفز من مضجعه وأخذ يبحث عن شيء ما، بحث في كل أدراج مكتب غرفته فلم يجد شيئًا، ربما في حقيبته أو حافظة أوراقه، أخذ يبحث فيهما حتى وجد ما يبحث عنه، لقد كان ما يبحث عنه بطاقة صغيرة، ما أن التقطها حتى أخذ ينظر إليها مبتسمًا، كانت البطاقة تحمل اسم الضابط يوسف حمزاوي وكل سُبل الاتصال به.

كان الوقت متأخرًا لكنه كان الوقت المناسب بالفعل للقيام بالاتصال به على هاتفه الشخصي، اتصل ناصر بذلك الرقم الشخصي فلم يجبه في المرة الأولى وكان لذلك سبب ما وهو أن الساعة كانت تشير إلى الثانية والنصف صباحًا، أعاد الاتصال مرة ثانية وثالثة أجاب على إثرها يوسف غاضبًا:

- أي سخفٍ هذا؟! من أنت؟ وماذا تريد في هذا الوقت المتأخر؟

أجاب ناصر بأدب جم وهدوء شديد بعد أن اعتذر منه:

- أنا المهندس ناصر الديب، لقد تقابلنا قبل أسابيع قليلة في وادي جهنم بسبب حادثة....

- نعم، نعم أذكر ذلك لكن الوقت لا....

قاطعه ناصر متأسفًا ثم أخبره أن لديه أمرٌ خطير يجب أن يخبره به، وأن هذا الأمر يهدد سلامته وكذلك سلامة الوادي بأكمله؛ بالطبع أفاق يوسف وانتبه لهذا الكلام الخطير فحكى له ناصر القصة بأكملها والتي بدأها ناصر نفسه قبل سنتين أو أكثر قليلا، كانت هناك بعض الأشياء التي أثارت استنكار واندهاش يوسف مثل تهديد أقوام الجن وإن كان يعرف بحكم عمله داخل كل أرجاء المحافظة ومنها حقول البترول بأمور كهذه سواء صدّقها أم لا، أخبره ناصر كذلك بأمر الكهف الغريب الذي كان سببًا في موت الشباب الأربعة وربما موته هو نفسه إن لم يتعامل يوسف جيدًا مع الأمر.

فكّر يوسف قليلًا ثم قال بهدوء:

- حسنًا، ما زال لدينا يومان كاملان للتخطيط جيدًا، يجب أن نهاجم المحمية في فجر ذلك اليوم حيث ينقلون ذلك الشيء الذي يستخرجونه من الكهف، لكن يجب أن يكون هناك سبب يستدعي خروجي مع حملة كبيرة للقيام بذلك...

قاطعه ناصر بحسم:

- لا تنسَ أننا يجب أن ندمر ذلك الكهف كذلك لهدم ذلك المشروع كله.

فكر يوسف مليّا ثم قال:

- حسنًا، اضمن ليَ القبض على ذلك الشيء الذي يهربونه من المحمية وأنا أضمن لك هدم ذلك الكهف.

- سأفعل ما بوسعي، غدًا سأتيقن من كافة الأمور من بعض رجالي، وسأعلمكَ بأي جديد.

.....

في هذه الليلة كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل بينما كان الضابط يوسف حمزاوي يراجع بعض الأوراق على مكتبه عندما اتصل به ذلك الرجل والذي يُدعى المهندس صبري عبد اللطيف الذي قال بصوت متهدج متقطع مذعور أن حريقًا كبيرًا نشب في المحمية التي يعمل فيها بسبب ماس كهربي، على الفور أبلغ يوسف رؤسائه بالأمر وجمع قواته وأبلغ هيئة الدفاع المدني بالأمر، ثم بسرعة تحرك برجاله إلى هناك ليصل قبل رجال الإطفاء بالطبع؛ كانت المسافة إلى هناك تحتاج إلى ساعتين على الأقل، في تمام الساعة الرابعة فجرًا كانت الشرطة تقف أمام البوابة الحديدية الضخمة والتي هي مدخل المحمية، ما أن رأى ناصر قدوم قوات الشرطة إلى هناك حتى هرع إلى سيارته واتجه إلى هناك؛ لم يعرف حُراس المحمية ما يجب عليهم فعله حيث تفاجأوا بالأمر وأُسقِط في أيديهم خاصة عندما

أبلغهم يوسف حمزاوي أن ثمة حريق بالداخل ويجب إنقاذ أولئك الأبرياء هناك؛ في هذه اللحظات وصل المهندس ناصر إلى يوسف عندما فتح لهم الحُراس الباب على مصراعيه، قاد ناصر يوسف ورجاله إلى الكهف في ذلك المكان الذي سبق وأن وصفه له موسى صبيح بكل دقة، وجد يوسف مجموعة من الحراس أمام الكهف، ما أن رآهم الحراس حتى فتحوا عليهم نيران أسلحتهم الآلية، أمر يوسف رجاله بإيقاف سياراتهم والتعامل مع الحُراس، وخلال دقائق معدودة كان رجال الشرطة يفتحون نيران بنادقهم الآلية على الحراس من كل الاتجاهات ثم ألقى يوسف خمس قنابل مُسيلة للدموع على مدخل الكهف حتى سقط الجميع مغشيًا عليه خلال دقائق قليلة؛ توقفت أصوات النيران تمامًا فأدرك يوسف أن الأمر قد استتب له فأمر بعض رجاله بالالتفاف حول الكهف ومحاصرته ثم دخل ومعه ناصر وثلاث من رجاله إلى الكهف، وفي الداخل كان هناك سيارتان من سيارات الدفع الرباعي المعروفة تحملان مجموعة كبيرة من الصناديق الخشبية وبداخلها عُلَب من الصفيح بداخلها معدن الليثيوم داخل زيت معدني لحفظه؛ لم يعرف يوسف ذلك بالطبع لكن ناصر أخبره به، فهو يعرف عن الأمر بسبب اهتمامه بمصادر الطاقة النظيفة التي على رأسها الليثيوم بالطبع.

على الفور أمر يوسف رجلين من رجاله بقيادة السيارتين إلى الخارج بينما أمر الثالث بإخراج جميع العاملين واقتيادهم بعيدًا عن الكهف.

خلال ربع ساعة كان الكهف خاليًا تمامًا من الجميع، الحراس، العاملين ورجال الشرطة، بينما وقف يوسف وناصر أمام الكهف قال ناصر بهدوء:

- ماذا الآن؟

- لا أعرف إلى أين ستسير الأمور قانونيًا وأمنيًا يا ناصر، خاصة أن المحمية هي منطقة استثمار كبيرة، وهذا المشروع لا بد أنه تمّ من خلال بعض المسئولين داخل بلادنا.

- لقد أخبرتك بكل ما أعرفه.

- حسنًا لدي ذلك الليثيوم، ولدي ذلك المبرر لقيامي بهذه الحملة الأمنية إلى هنا من خلال مكالمتك لي باعتبارك هذا المهندس صبري عبد اللطيف....

- لكن ماذا عن ذلك الحريق الذي أبلغتك عنه؟

نظر يوسف إلى ساعته ثم نظر إلى ناصر نظرة ذات معنى قبل أن يدير ظهره إلى الكهف ويقول:

- لديك عشر دقائق أو أقل قبل أن تصل قوات الحماية المدنية.

اندفع ناصر بسرعة داخل الكهف ثم نزل من خلال السلم الحديدي الجانبي إلى أسفل الكهف وخلال ثوانٍ كان قد وصل إلى غرفتي الكهرباء والمولدات ثم غرفة صهاريج الوقود الذي أخذ بعضًا منه ثم قذفه على غرفتي

المولدات الكهربائية ولوحات الكهرباء قبل أن يتحرك منهما بسرعة ويشعل قداحته ويلقي بها على الوقود المنساب من غرفة الوقود التي فتح صنابير صهاريجها قبل أن يتركها ويهرع إلى أعلى الكهف ومنه إلى الخارج؛ بعد ثوانٍ معدودة من خروجه كانت الانفجارات تهز أركان الكهف من كل الاتجاهات.

ظلت قوات الدفاع المدني تحاول إخماد النيران المشتعلة طوال خمس عشرة ساعة تقريبًا منذ الخامسة صباحًا وحتى الثامنة مساءً إلى أن سيطرت على هذه الحرائق تمامًا.

لم يكن هناك حاجة لقتل المهندس ناصر الآن حيث أصبح العالم كله يعرف عن أمر ذلك الكهف وهذه الصناديق التي ضبطتها الشرطة هناك؛ كانت الصحافة تتحدث عن اكتشاف الأمر بالصدفة نتيجة حدوث حريق عارض بسبب ماس كهربي أو شيء من هذا القبيل والذي أدى فيما بعد إلى سلسلة من الانفجارات أدت إلى هدم وتدمير الكهف، وبالطبع مَدحَت الصحافة الشرطة والأمن وأثنت على جهودهما في إخلاء المكان من العاملين والسيطرة على الحرائق سريعًا حتى أنه لم توجد أي إصابات أو وفيات بين العاملين بمصنع الليثيوم.

كان على نافع غراب وفهمي بدران وشركائهما الدفاع عن أنفسهم فيما يخص اتهامهم ببناء مصنع لليثيوم دون ترخيص وإهدار موارد الدولة وكذلك قتل

المهندس صبري عبد اللطيف وأسرته الذي ربطته الشرطة بهم كونه مهندس المشروع والمسئول الأول عنه منذ بضعة شهور.

خلال أيام قليلة كان المهندس ناصر يستمتع بإجازته رفقة أبنائه بينما يتابع بترقب- من خلال الصحف والبرامج الإخبارية- آخر مستجدات قضية سرقة موارد مصر.

****

تمّت بحمدِ اللّهِ

واللّهُ الموفقُ والمُستعان

شريف نصر

محتويات الرواية

إهداء..... 4
المقدمة..... 5
الفصل الأول على جهاز الحفر..... 8
الفصل الثاني بالقرب من محطة الإنتاج..... 19
الفصل الثالث اللـــقـــاء..... 31
الفصل الرابع حالة من الجُنـــــون..... 42
الفصل الخامـس الشيـــخ غُـراب..... 55
الفصل السادس الراقص مع الأشباح..... 67
الفصل السابع حكاية أميرة..... 77
الفصل الثامن بداية ونـهاية..... 89
الفصل التاسع أرض الأمـــراء..... 100
الفصل العاشر المـشـــــــــــروع..... 114
الفصل الحادي عشر البحث عن الـحـــقـيـــقة..... 125
الفصل الثاني عشر نـــــفـــرٌ من الجـــــن..... 139
محتويات الرواية..... 155

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.